شادي لويس

على خط جرينتش

رواية

دار العين للنشر



على خط جرينتش

رواية

شادي لويس

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/١٤٥٤٤

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 555 - 1

على خط جرينتش

روايـة

شادي لويس

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

لويس، شادي

على خط جرينتش: رواية/ شادي لويس.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٥٥٥ ١

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٤٥٤٤ / ٢٠١٩

الإهداء

إلى أولريكا ومرية ووديعة

"دعِ الموتى يدفنون موتاهم"

(إنجيل لوقا 9:60)

الفصل الأول

كان أصغر مني بعشرين عامًا كاملة. وحتى الآن، أنا لا أعرف الكثير عنه. ولأكون أكثر وضوحًا، قبل ثلاثة أيام فقط لم أكن أعلم بوجوده في هذا العالم. ليس مدهشًا ألا نعرف بوجود الآخرين بالتأكيد، والكثير منهم أيضًا. إنما حقيقة أنني أصبحت مسؤولًا عن جثته، هكذا فجأة، كان لها بالطبع أن تصيبني ببعض الاضطراب. فالموت يلحق بمن هم في نصف عمري، ودون أي مقدمات على الإطلاق. لكن هذا في حد ذاته لم يزعجني أكثر من تململ الإنصات إلى عدد القتلى في نشرات أخبار الصباح. ربما ما أفزعني أكثر من أي شيء آخر هو الطريقة التي مات بها. فما أتعس أن يموت المرء في مثل هذا السن، هكذا... في غرفته، في هدوء وعلى سريره، ودون شاهد واحد على ما حدث. وهذه ميتة بالطبع لا تليق بأيامنا هذه، التي لحسن حظنا أو سوئه، أصبح واجبًا علينا أن نأخذ فيها الموت على

محمل الجد، أن نعتبره شرًّا خالصًا، لا مُبررًا ولا مفهومًا.

فالمسكين كان من الممكن أن ينال موتًا أشرف من هذا بعض الشيء، وأقل وطأة على أحبائه. كأن يكون قضاؤه مع بعض الرفاق، الذين حتى إن لم يربطه بهم أي صلة سوى الموت الجماعي، فهذه ونسة لا ينبغي بخس قيمتها، وهي رائجة مؤخرًا بشكل كبير. أو أن يموت أمام بعض الشهود، حيث يمكن للتفاصيل التي سيروونها مرارًا وتكرارًا عن لحظاته الأخيرة أن تكون عزاء ما لأهله، أو تقوم بإضافة قليل من المرارة المرغوبة لتبقى الذاكرة حية وطازجة لأطول وقت ممكن. أو أن يسبق موته مباشرة معاناة من نوع ما. فيبدو الموت وكأنه نهاية لها وراحة لمن حوله. وفي أسوأ الحالات كان يصح أن يرحل في حادث سير أو شيء من هذا القبيل، فنندهش من عبث الأقدار. فحتى هذا النوع من البلاهة المميتة تحمل قدرًا لا بأس به من العبرة، ويشهق الناس ويضربون على صدورهم حين يسمعون بأخبارها.

وكل هذا لم يكن ليؤثر سوى بالقدر اليسير في المرحوم بالتأكيد. فعلى ما نعرف جميعًا أن الموتى لا يعانون من فجيعة الموت، بقدر معاناة الأحياء. فهؤلاء التعساء مفترض بهم أن يلملموا أشلاء ما تحطم برحيل الموتى، وأن يستمروا في الحياة كأن شيئًا لم يحدث. وهذه معجزة أكثر إدهاشًا من الميلاد، ولا تقل مأساوية عن الموت نفسه.

ولصدفة ما، أصبحت واحدًا من الأحياء الأسوأ حظًّا، ممن كُتب عليهم شقاء موت شخص آخر مجهول تمامًا بالنسبة لهم. ولا يمكنني

لوم أحد سوى نفسي، ففي تلك الليلة التي هاتفني فيها أيمن من القاهرة حوالي منتصف الليل، والتي بدأ فيها كل شيء، كان من الممكن أن أرفض التورط في الأمر برمته، ببساطة كان يمكن أن أقول: لا، أو أن أتهرب منه مستعينًا بواحدة من أكاذيبي الصغيرة، التي اعتدت على استخدامها منذ أن انتقلت للعيش في لندن. لكن علينا ألا نقلل من شأن الإحراج، وما يمكن أن يجلبه على المرء حين يتملك منه في لحظة بعينها.

فتلك كانت المرة الأولى والوحيدة التي قصدني فيها أيمن في خدمة، ولأكون أكثر دقة لم يحدث أن سألني أحد من القاهرة، منذ غادرتها، أن أسدي له جميلًا هنا من أي نوع. وكانت هذا فرصتي الوحيدة، في عشرة أعوام، لأثبت أن وجودي في لندن له معنى ومفيد لأحد. خليط من الاعتداد بالنفس والشعور بالحرج، وهذا ما يلزم في معظم الأحيان لوقوع كارثة محققة.

فأيمن، بعد مقدمة قصيرة، أكد لي فيها أنني لست مضطرًا أن أساعد في الأمر، وأنه سيتفهم تمامًا إن رفضت، طلب مني أن أتوجه في الصباح التالي إلى مستشفى في شرق لندن، وأن أتسلم جثة شاب في العشرين من عمره، وأن أتولى إجراءات دفنها... هكذا ببساطة. وكان هذا كل ما قاله.

"سؤال مباشر ومحتاج إجابة من كلمة واحدة، آه ولا لأ؟"

كان صوت أيمن حادًّا، وفهمت أنه لا أمل في زحزحته عن موقفه، إلا أنني حاولت بأي حال:

"كدهماينفعش، مش أعرف الأول ده مين، وإيه الحكاية"

وكما توقعت، لم تفد محاولتي سوى في إضافة المزيد من الحدة إلى نبرته.

"لو هتعملنا الخدمة دي، هقولك إللي أعرفه، لو لأ يبقى مالوش لازمة اللت والعجن. إيه؟ آه ولا لأ؟"

نال أيمن الإجابة التي أرادها، وبمنتهى السهولة. فأنا أعطيته كلمتي بعد أقل من نصف دقيقة من بدء المكالمة. وورقته الرابحة، لم تكن القسوة التي سمعت رنتها واضحة في صوته. ولم يكن ما انتزع موافقتي أيضًا أسئلته المقفولة، ذات الخيارات الشحيحة والمكثفة، نعم أو لا، والتي لا يحتمل قمعية بساطتها أي سؤال في العالم.

الفضول، كان رميته الرابحة. لم يكن أيمن سيخبرني بحكاية المرحوم، لو كنت أجبته بالرفض، وأنا متأكد أنه كان سيتشدد في العقوبة، لن يقول كلمة واحدة عن الشاب الميت مرة أخرى أبدًا. كان يعرف أن نقطة ضعفي هي الفضول، واستغلها بكل نذالة.

وعلى الرغم من كل تلك الغرابة القاتمة التي أثارها طلب أيمن، فإنه وبمجرد أن بدأ في تفسير الأمر، تبخرت الإثارة تمامًا، فلذة الاستثارة الخفيفة التي اعترتني لم تدم إلا ثواني محدودة. فبعد أن انكشف المخفي، تداعت أسباب الفضول كالعادة. وهذا لم يفاجئني، فأنا بوجه عام، أجد المعرفة، بالرغم من كل ما يثار حولها من جلبة، أمرًا مبالغًا في تقديره، ومملًا بشكل مأساوي.

الحقيقة أن حكاية الشاب الميت هذا، ويُدعى غياث، كان ممكن أن تكون أكثر إثارة لو حدثت قبل عشر سنوات مثلًا. أو لو أنها لم تكن مكررة إلى هذه الدرجة الفاقعة. أو لو انتهت بحدث غير متوقع أو حتى تُوجت بموت أكثر بطولية. فالقصة كانت مملة بعض الشيء ومخيبة للأمل، حتى أني بالكاد أتذكر خطوطها العريضة، أو بعضًا منها. فأيمن يعرف عائلة سورية، استأجرت بيتًا صغيرًا بجوار بيت والدته في البلد. وربما هذه أكثر معلومة مثيرة في القصة كلها، فأنا لم أكن أتخيل أن يصل السوريون إلى قرية "الطيبين"، في صعيد مصر، فهذا مكان صعب إيجاده على الخريطة بالأساس.

المهم، هربت الأسرة كلها من سوريا حين اشتدت الحرب. وبما أنهم وصولوا إلى مصر، فهذا دليل لا شك فيه، إما على يأسهم الكامل أو سوء حظ غير مسبوق. أما الابن البالغ الوحيد، غياث، فقد بقي في سوريا، لا لشيء سوى أنه كان في واحد من سجون المخابرات، واحد من أفرعها لا أذكره، ومعرفته لن تضيف شيئًا للقصة بالتأكيد. وبحسب أيمن، قام غياث مع اثنين من رفاقه في الزنزانة بحفر نفق طوله مئة ميل باستخدام معالق الطعام البلاستيكية. نفق يعبر الخط الذي يفصل بين أراضي النظام وأراضي المعارضة. ويبدو أنه بمجرد خروجه من النفق ألقت واحدة من فصائل المعارضة القبض عليه لسبب ما، طبعًا لا مفاجآت حتى الآن. ولمدة ثلاثة أسابيع، استمر احتجازه في أراضي المعارضة، خلالها تبادل السيطرة على محبسه اثنان وعشرون، أو ثلاثة وعشرون فصيلًا (لا أتذكر

على وجه الدقة للأسف). وحكم القاضي الشرعي لأحد الفصائل بإعدامه لسبب غامض. لكن القاضي نفسه أُعدم بعدها بنصف ساعة. وهكذا نجا مرحومنا غياث من موت محقق.

وأعتقد من الممكن للقصة أن تطول بشكل أكثر مللًا، في متاهات كل تلك التفاصيل، خاصة حين يصل الأمر للطرق التي نجا بها من مئة وأربعين غارة، جراء قصف طائرات من واحد وعشرين دولة، ومن البراميل النظامية، والغازات الملونة وغير الملونة، ذات الروائح وعديمة الرائحة، هذا غير صواريخ الكاتيوشا. بالصدفة، تعرض غياث على صغر سنه لطيف واسع من كل هذا.

وكون أنه انتهى في فرع آخر للمخابرات، مرة ثانية، لا يضيف سوى طبقة أخرى من التكرار للقصة. فصحيح أن طرق التعذيب في هذا السجن تلزمنا بالاعتراف بالموهبة والخيال الفذ الذي استثمر في اختراعها، وتقدير الهمة والإخلاص في تفعيلها. إلا أنها لا تقود إلا لنتائج متقاربة جدًّا، في النهاية. وعاد غياث هذه المرة وحفر نفقًا أطول من سابقه ليأخذه خارج البلاد كلها. حفره بمفرده هذه المرة ودون الاستعانة بأية أدوات، وأعتقد أن أيمن بالغ قليلًا، حين ادعى أن غياث فعل ذلك كله بينما كانت يداه مقيدتين خلف ظهره طوال الوقت.

وفي عيد ميلاده التاسع عشر، نجح في أن يصل من النفق إلى البحر فعلًا، وسبح من بيروت إلى الإسكندرية في ثلاثة أيام فقط، ويبدو أن دُلفينًا طيبًا

كان قد رافقه في رحلته تلك واعتنى به بشكل جيد خلالها. لكن ولسوء الحظ، فإنه وصل إلى مصر، في يوم صيفي، لم يكن من أفضل الأيام، حيث وبسبب تفاصيل كثيرة ومعقدة وغير مهمة، أصبح السوريون فيه، فجأة، غير مرغوب بهم في البلاد. لكن بعض حسن الحظ قد أصابه، فالمصريون وضعوه على أول طائرة مغادرة. وظلت الطائرة تحلق بضعة أيام، بحثًا عن مكان تأخذه إليه ويقبل به، قبل أن تحط أخيرًا في الإكوادور، كما يمكن للمرء أن يتوقع بمنتهى السهولة.

مرت عشرة أشهر، انتقل فيها بين أربع قارات وعبر حدود سبع وخمسين دولة، على قدميه، بمفرده ومع آخرين، وبدل إقامته بين ثلاثة وأربعين مخيمًا، وعبر محيطين وأربعة بحار، وثلاثة عشر نهرًا، ونجا من ميتات محققة أكثر من مرة، زلزال ضربه في جواتيمالا، وتمساح حاول التهامه في بوليفيا. وكاد أن يغرق أمام جزيرة في جنوب اليونان لولا أنه تعلق بجثة طفل كانت طافية بجانبه. ولاحقًا هاجمه كلب بوليسي في بلغاريا كان على وشك أن يقتلع قلبه من مكانه ويمزقه بأسنانه. سوري آخر أشعل النار فيه حين كان في برلين. لكن أخطر هذه الميتات الفاشلة حدثت حين حاولت صحفية مجرية شنكلته وهو يجري في حديقة عامة من مطاردات الشرطة، وسقط برأسه على حجر حينها وكادت أن تنفلق لنصفين، *لكن عمر الشقي بقي*.

ولا شك أن ما مر به غياث، يحمل بعض اللمحات المثيرة للاهتمام، لكن مشكلته أنه في معظمه معتاد، في أيامنا هذه، وبضع ملايين على الأقل

لديهم قصص مشابهة جدًّا، ومتطابقة إلى حد الملل. بالإضافة إلى ذلك، فإن كثيرًا من التفاصيل ـ التي لا أود أن أفصح عنها، حفاظًا على ذكراه ـ ربما ستثير نفورنا منه. ففي خلال تلك الرحلة الطويلة، ارتكب غياث الكثير من الأفعال غير القانونية والمشينة. ومع أنه من المفهوم أنه كان مضطرًّا في معظم الأحيان، إلا أن الغاية لا تبرر الوسيلة بالتأكيد، وخاصة حين يصل الأمر إلى الكذب. فمثلًا حين وصل غياث أخيرًا إلى جزيرتنا الصغيرة هذه، وحتى لا تقوم السلطات بإعادته إلى فرنسا مرة أخرى من حيث جاء، ادعى أنه قاصر، وأن عمره لا يتجاوز الخامسة عشرة، والمدهش أنه كان بارعًا جدًّا في كذبه، حتى أنهم صدقوا أنه بالفعل أصغر من عمره بحوالي خمسة أعوام على الأقل.

ربما سيبدو في كلامي هذا بعض التحامل على الشاب المسكين، وليس مستبعدًا أن ينسب هذا لموقفي السلبي تجاه اللاجئين أو شيء من هذا القبيل. وهذا افتراض مبرر جدًّا، وخاصة أنني أعرف الكثير من المهاجرين أمثالي، الذين بعد أن وصلوا إلى هذه البلاد أو لغيرها، تمنوا أن يغلقوا الباب وراءهم وأن يلقوا بالمفتاح في عرض البحر. لكن هذا قطعًا ليس صحيحًا في حالتي، فأنا لدي موقف ناصع من اللاجئين، تعلمته عبر طريق صعب ووعر، وفي مرحلة مبكرة جدًّا من حياتي. وأجد نفسي للأسف مضطرًّا لسرده، لتبرئة نفسي.

ففي طفولتي كان يسكن في نهاية شارعنا الجانبي، بشرق القاهرة توأمان أكبر مني بعام واحد وأطول مني بكثير. وكان للولدين مظهر غير معتاد،

فغير شعرهما فاقع الحمرة، فإن وجهيهما كانا شاحبي اللون، ويغطيهما النمش بالكامل، حتى كان يصعب تبين ملامحهما. وكان سلوك الولدين غريبًا غرابة هيئتهما، أو لنقل إنه كان لديهما مبرر غامض، ليتفاديا دائمًا اللعب مع أطفال الشارع أو الحديث معهم.

وكان هذا الغموض سببًا كافيًا لنا، لنشعر تجاههما كما يشعر المرء تجاه الغرباء، أي ببساطة الخوف والتقزز منهما في نفس الوقت. لكن كان لتلك الهوة بينهما وبيننا أن تنكسر، وبطريقتهما وعلى حسابي للأسف.

ففي أحد أيام الصيف، وبينما كنت أجلس على عتبة بيتنا، وشارعنا خالٍ تمامًا من المارة كعادته بعد المغرب. لمحت عن بُعد أشرف وشريف يقتربان مني بخطوات ثابتة، وبدت أعينهم مملوءة بنية الأذى، وأنا لم أتصور أنهما سيقدمان على شيء أمام بيتنا، هكذا بمنتهى الوقاحة ودون مبرر، وظننت أنهما ربما يبغيان جر الشكل لا أكثر.

لكنني كنت مخطئًا، فأحدهما اقترب مني حتى كادت ركبتاه أن تلامس ظهري وأنا جالسٌ على الأرض، ووقف بطوله الفارع فوق رأسي تمامًا. وحين رفعت وجهي للنظر إليه، بصق قاذفًا كرة ثقيلة من بلغمه في عيني. وتبعه الثاني بركلة في جنبي، خرجت مني على إثرها صرخة طويلة من الألم والمهانة. تحرك الاثنان عائدين من حيث جاءا، بخطوات واثقة وبرضا كامل عما فعلا. وبعد مترين التفت أحدهما إلى الوراء، وصرخ في غضب لم أفهم مبرره: "يا عضمة زرقا".

كانت تلك السُبة هي ما جعلتني أتوقف عن الصراخ فجأة، فالهجوم

الذي كان غير مبرر تمامًا منذ لحظة واحدة، أصبح سببه مفهومًا. فقط لأنني عظمة زرقاء أو لنقل لأني ضحية سهلة يمكن استهدافها دون خشية العواقب. وتلك المعرفة كانت كافية لتهدئتي. فالأمر العجيب الذي تعلمته في هذا السن الصغير، هو أن كثيرًا من المظالم تصبح أقل وطأة علينا، بمجرد معرفة منطقها، وأن أبشعها التي تظل بلا تفسير.

ولا أعرف على وجه الدقة لماذا يصبح الظلم أقل ألمًا لو جاء مقترنًا ببعض القواعد العامة والمفهومة. ربما بسبب الاعتياد والتوقع، أو ربما لأنه يفقد طابعه الفردي، ولا يشعر المرء أنه موجه له بصفة شخصية. كانت هذه بصقة على المسيحيين، جميعهم، وليس بالضرورة في عيني أنا، هذا ما قلته لنفسي. وكانت تلك الفكرة مرضيه تمامًا، وسببا كافيًا لأسقط عبء الانتقام عن كاهلي.

لكن هذا لم يكن ما رأته أمي. وأنا لم أتوقع منها الكثير، حين أخبرتها بما حدث. فحين يتعلق الأمر بالعظام الزرقاء والسوداء، أي بالدين في شجارات الأطفال، أعرف أنها تفضل السلامة، وتوبخني في كل مرة: "مش قلت لك ما تلعبش مع الزفت المسلمين، أهم ضربوك... تستاهل"، وكان كل ما أتوقعه منها، هو صفعة على وجهي، كلما عاندتها قائلًا: "هوه أنا لقيت غيرهم، ومالعبتش!"

إلا أنه في تلك المرة، حدثت معجزة. تلبست تلك المرأة الوديعة والمغلوبة على أمرها فورة خارقة من الغضب، وسحبتني من ذراعي بقسوة، وجرجرتني

بطول الشارع كله، إلى بيت الولدين. وبدأت بالصراخ بشكل هستيري، وهي تطرق الباب، بعنف شديد. وحين فتحت أمهما، دفعتها عن طريقها، فسقطت المرأة على الأرض. وهرولت أمي إلى داخل البيت، وأنا وراءها. حتى وجدت الولدين في الصالة، وبدأت في صفعهما وركلهما بلا تمييز، حتى أنني خشيت أنها من الممكن أن تقتل أحدهما بضربة خاطئة على الرأس. وربما هذا ما فكرت فيه أمهما أيضًا. فهي كانت تصرخ في الشارع متوسلة النجدة من الجيران. ولم تستغرق دفقة الجنون تلك سوى دقيقتين، خرجت بعدها والدتي من بيتهم، وجسدها ينتفض من فرط الغضب، وهي تزعق بعلو صوتها في وجه الشارع كله:

"مفيش غير اللاجئين كمان إللي يضربوا ولادنا، نبقى في بلدنا والمتشردين إللي لامنهم عندنا يتفوا علينا كمان".

"اللاجئين" كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها تلك الكلمة، وما جعل الأمر أكثر تشويشًا أن أمي في صراخها حينها وبرطمتها، كانت تخلط بينها وبين "الفلسطينين"، فبدا لي أنهما نفس الشيء. لكن ما فهمته من الكلمة وملأني بالزهو، هو أن هؤلاء، أيًّا كانوا، يقعون تحتي في سلم الضرب، تحت الجميع في الحقيقة، فأنا كنت في قاع السلم، وعلى درجته قبل الأخيرة.

"يعني إيه لاجئين يا ماما؟"

"يعني ما لهمش بلد".

والحقيقة، وأنا أقول هذا بكل خجل، كانت تلك لحظتي الأولى لشعوري الطفولي بالانتماء للبلد، وأحببت اللاجئين، بصورة أو بأخرى، لأنه بفضلهم لم أعد الحائط المائل للجميع بعد الآن.

وبدلًا من أن تنتهي الأحداث هنا، فإن الأمور تطورت بشكل درامي ومخجل جدًّا. فبعد ساعتين من الهدوء، قضتهم أمي في حالة ترقب، وبعد أن عاد أبو الولدين من عمله وعرف ما حدث، قطع الصمت المخيف في بيتنا، قرعات الرجل الجنونية على الباب:

"مفيش غير النصارى كمان إللي يضربوا عيالنا"

رأيت أمي ترتجف من الرعب، وهي تفتح الباب، وفعل الرجل كما فعلت هي في بيته، دفعها من طريقه، وأسقطها على الأرض، ودخل يهرول بدوره في الصالة، لكنه لم يكن يبحث عني كما ظننت، بل عن رجل البيت:

"ما هو انتِ مالكيش راجل يحكمك"

ولحسن الحظ لم يكن والدي قد عاد من العمل بعد، وكان المتاح أمام الرجل ليفعله محدودًا، فهو لم يكن ليمد إيده على واحدة ست. وبعد أن حاول تحطيم بعض الأثاث في بيتنا، ولم ينجح سوى في إيلام يده، قرر أن يخطو إلى الخارج، ومقاطعة صراخ أمي في وجه رجالة الشارع:

"الفلسطينية بيضربونا في بيوتنا، وانتوا بتتفرجوا من البلكونات، يا شوية نسوان".

وكان رد فعل الرجل مفاجئًا جدًّا لي، فلقد انفجر في الضحك، وهو يهز رأسه في حركات سريعة، وكأنه غير مصدق ما سمعه. وبدا وكأن كل غضبه قد برد وهو يسير في طريق بيته ضاربًا كفًّا بكف:

"همه مين إللي فلسطينية، يا مرة يا مجنونة!"

لم تتجدد الاشتباكات مرة أخرى بيني أنا والتوأم. ولم تحدث مواجهة بين والدهم وأبي، الذي حرص أن يخرج ويعود للبيت خفية بعد تلك الحكاية لعدة أيام. أما جلاء سوء الفهم الذي وقعت فيه أمي، فلم يحتج سوى بضعة دقائق، فالجيران الذين تجمعوا بعد انفضاض العركة، أخبروها بأن أهل أشرف وشريف ليسوا فلسطينية أو لاجئين، إنهم صعايدة من مهجري السويس، ممن هربوا منها بعد النكسة، وتم تسكينهم في القاهرة. وربما لهذا السبب اختلط عليها الأمر.

وأنا منذ تلك الحكاية، وخاصة بعد أن أدركت أبعادها كاملة بعد تقدمي في السن، أصبح لي موقف واضح تجاه كل اللاجئين، ولا يمكن المزايدة عليه من أحد. فبلا شك علينا أن نتعامل معهم جميعًا على قدم المساواة والتقدير، فربما من نظن أنهم من اللاجئين يتضح أنهم ليسوا لاجئين في النهاية ويكون موقفنا محرجًا جدًّا. والأسوأ إذا اتضح أن لهم أبًا مستعدًّا لضرب والدك، وهذا يجعل الموقف في غاية الخطورة.

• نعود لغياث قبل أن ننسى قصته، فإن كل ما حدث منذ وصوله إلى بريطانيا، حتى اليوم الذي اشتم فيه شريكه في السكن رائحة كريهة تنبعث

من غرفته، أقل أهمية من أن نذكره. لم يلحظ الرجل البولندي غياب غياث لثلاثة أيام، فهما بالكاد تحدثا كلمتين خلال إقامتهما المشتركة، يس ونو، مع بعض الارتجالات من لغة الإشارة لتدبير الأمور اليومية. كانت الجثة منتفخة وراقدة على ظهرها في وداعة وسأم. واستدعى الشريك الشرطة، التي نقلت الجثة إلى المشفى للتشريح، وهناك ظنوا أن سبب الوفاة هو خيبة الأمل، أو العمل الكثير لأكثر من اثني عشرة ساعة يوميًّا، أو ربما الملل من الغياب المفاجئ لتهديد الموت.

"الله يرحمه يا سيدي. أنا إيه علاقتي بده كله؟"

بردت القصة القليل من الحماس الذي تظاهرت به، لكن أيمن لم يكن ليسمح لي بالتراجع:

"إنت هترجع في كلامك ولا إيه، ما احنا قولنا واتفقنا هتروح تستلم الجثة وتعمل له جنازة".

لم يكن هذا ما اتفقت عليه بالتأكيد، فكل ما وعدت به كان المساعدة في الأمر. وحاولت أن أفلت من هذه التوريطة التي نصبها لي:

"وهيه بالساهل كده، مش فيه إجراءات... وبعدين أنا صفتي الرسمية هتكون إيه؟"

عاجلني أيمن بضربة قاضية، ووضعني في خانة المفعول به:

"ما لكش دعوة إنت، كل حاجة هتكون جاهزة على آخر اليوم بكره".

لم تنجح محاولاتي للتهرب، فأيمن كان مستعدًّا بكل الإجابات كعادته. فموظفة السفارة البريطانية في القاهرة، التي اتصلت بأسرة المرحوم لتبلغهم بخبر الوفاة، كانت متعاطفة جدًّا مع مصابهم. واقترحت عليهم في نفس المكالمة أن يتقدموا جميعًا بطلب لتأشيرة طارئة للذهاب إلى لندن لدفن الولد. ووصل تعاطفها لدرجة أنها ألمحت لهم ضمنيًّا، بألا يعودوا بعدها للقاهرة، فهذه فرصه جيدة ولا يجب عليهم أن يفوتوها. ومن فرط لطفها، اعتذرت في الحال عن اقتراحها، فكيف جاءتها كل تلك الوقاحة لمناقشة خطة لطلب اللجوء في لندن بعد دقيقتين من تبليغ الأسرة بذلك الخبر التعيس. وشددت على أسفها لوصفها جنازة الولد بالفرصة. وقبلت الأسرة الاعتذار في الحال، وبنهاية المكالمة كان أبو غياث قد وجد نفسه، ودون أن يدري، وقد حدد معها موعدًا للحضور إلى السفارة مع كامل أفراد الأسرة في اليوم التالي لملء الاستمارات وترتيب الإجراءات الأخرى لسفرهم.

ويبدو أن الأمر شابه بعض سوء الفهم. فالأسرة وصلت إلى السفارة في عربة نصف نقل محملة بشنط السفر وبعض الأمتعة الأخرى. مع كل ما كانوا يمتلكوه في الحقيقة، وهو لم يكن كثيرًا بأي حال. وخلال الطريق، عبر السائق عن اندهاشه من اصطحابهم كل تلك الأغراض إلى موعدهم الأول في السفارة وسخر ضمنًا من سذاجتهم. لكن كان لديهم رد مقنع، فهذه أول مرة يموت لهم ابن، ولا يعرفون ما المفترض فعله. واتضح لاحقًا، أنهم لم يكونوا مخطئين على الإطلاق. فالموظفة الشقراء التي استقبلتهم، كانت أكثر لطفًا وتعاطفًا من تلك التي تحدثت معهم على الهاتف، وأبلغتهم بأن

القنصل نفسه مهتم بالأمر، ولولا أنه مشغول بمتابعة موضوعهم بنفسه مع لندن على التليفون، لكان قد جاء لحظتها لتعزيتهم. ملأ أفراد الأسرة بعض الاستمارات، وسلموا جوازات سفرهم. وبعد أقل من ساعة من وصولهم، طلبت منهم الموظفة المغادرة، ووعدتهم بأنهم سيتلقون اتصالًا بنهاية اليوم أو في الصباح التالي ليتسلموا جوازاتهم.

والحقيقة أنه حتى تلك اللحظة التي غادرت فيها الأسرة السفارة، لم تكن قد أتيحت لهم فرصة لتصديق الأخبار التي وصلتهم أو أن يستوعبوا ما كانوا يفعلونه. فطوال اليوم السابق ومنذ مكالمة السفارة، كانت الأم منهمكة في حزم الحقائب وتنظيف المنزل بكل همة، فليس من الأصول أن تتركه متسخًا عند رحيلها. والأب بدوره، كان مشغولًا جدًا، فهو لم يضع التليفون جانبًا طوال الليل. اتصل بمعارفه من هنا ومن هناك، بغية تدبير ما يمكن من المال لشراء تذاكر السفر وما سيحتاجونه من مصاريف أخرى.

أما مسألة الموت فقد نجح كلاهما في التظاهر بأنها لم تحدث. بل وأن المرأة التي لم تذرف دمعة واحدة منذ سمعت الخبر، قد تلبستها قناعة في منتهى العجب. وتمسكت بها رغم يقينها الكامل بأنها ليست سوى جنون محض. فالولد الذي تركته خلفها وهو في السابعة عشرة لا يعرف كيف يسلق بيضة، ومع هذا نجا من كل تلك الأهوال، ووجد طريقًا له في العالم من أقصاه إلى أدناه، لا يمكن أن يكون قد مات هكذا، حين لم يعد هناك مبرر

للموت. ولا بد أن تكون هذه واحدة من حيله التي تعلمها في تلك الغربة الموحشة، يتظاهر بالموت، ليتمكن من إحضارهم لأوروبا، ففي مكالمات "سكايب" أخبرها أنه سيبدأ في الإجراءات اللازمة للم شمل الأسرة، وأنهم سيكونون معه في القريب العاجل. ثم إن هذه لم تكن المرة الأولى التي تظاهر فيها بالموت، فقد فعلها من قبل على الأقل مرتين. وأكدت لها السهولة التي جرت بها الأمور في السفارة نظريتها.

للحظات، وقف رب الأسرة تائهًا أمام إلحاح أسئلة سائق السيارة النصف نقل. فهو كان منتظرًا لمدة ساعة أو أكثر، وأراد أن يعرف إن كان عليه أن يأخذهم إلى المطار، أم أن يرجع بهم إلى "الطيبين". وكان الشق الأول من سؤاله تهكميًّا بالطبع. ولم تكن خفة دم السائق الجلف لتساعد الرجل، فهو ظل محملقًا في وجهه، دون أن ينبس بكلمة. وبعد دقيقتين من الصمت، تدخلت المرأة وحسمت الأمر. وطلبت من السائق بصوت يملؤه الحبور، أن يأخذهم إلى ميدان التحرير وأن يتركهم هناك مع حقائبهم، فربما اتصلت السفارة بهم بعد كام ساعة ومن الأفضل ألا يكونوا بعيدين.

كان أيمن خارجًا من محطة مترو السادات، متوجهًا إلى مقر عمله، في نفس اللحظة التي أتم فيها السائق إنزال أغراض الأسرة من السيارة. ولسبب غير مفهوم توقف أيمن ونظر إلى الخلف، في اتجاه المجمع، بدلًا من أن ينطلق في شارع طلعت حرب كعادته. وهكذا لمح الرجل وامرأته واقفين، وحولهما حقائبهما والأولاد، على بعد أمتار من المجمع. وكانت تلك واحدة من تلك الصدف الصغيرة التي تتداعى بعدها أحداث غير

متصورة على الإطلاق ولا يمكن إسباغ أي منطق عليها، كأشياء أخرى كثيرة في هذه القصة. وفي الحقيقة إن كان هناك أي شيء يمكن استنباطه من تلك الالتفاتة الخفيفة، وفي تلك اللحظة بعينها، فهو تلك الصرامة والدقة التي تمارس بها العشوائية مهمتها.

اقترب أيمن قليلًا منهم حتى يتأكد أنهم هم فعلًا، وأدرك من هيئتهم أن هناك خطبًا ما لحق بهم. وما قفز في ذهنه في الحال هو أنهم ربما قد طردوا من سكنهم، أو قرروا المغادرة لسبب أو لآخر. ففي تلك الأيام، كان الأمن يدور على البيوت، ويجبر أصحابها بضرورة إخلائها من مستأجريها السوريين، أو يقوم هو بنفسه بالمهمة.

"بتعملوا إيه هنا يا أبو غياث؟"

ظل الرجل متسمرًا في مكانه، واتسعت حدقتاه فجأة حين تنبه لوجود أيمن، وإن كان تعبير وجهه الساهم لم يتغير على الإطلاق. ويبدو أنه حاول قول شيئًا ولم يستطع، ففمه كان مفتوحًا، ولم يخرج منه سوى فحيح انتهى بحشرجة خافتة. وسعى أيمن لمساعدته بتكرار السؤال، لكن هذا كان بلا جدوى، فالرجل غالبًا لم تتح له فرصة للتفكير حقًّا فيما كان يفعله هنا. وبعد لحظات بدأ الأولاد الصغار في البكاء بصوت منخفض، وهم يشدون ذراع والدهم، فقد تملكهم الرعب من رؤيته على هذه الهيئة. نظر أيمن إلى المرأة على أمل أن ينال منها إجابة على سؤاله الذي كرره للمرة الثالثة. كانت تلك اللحظة التي انفجرت فيها أم غياث في العويل ولطم وجهها بكل

ما تملك من قوة، قبل أن تقفز وتمسك بعنق زوجها وتصرخ في وجهه بكلام لم يتبين أيمن معناه. وكان هذا كفيلًا بإفاقة الرجل، الذي سارع بدفع يديها بعيدًا عن عنقه، وكتم أنفاسها بيده بغية وقف صراخها. فبعض المارة قد بدأوا في الالتفات لما يحدث وإن لم يتوقف أحد منهم لحسن الحظ.

جزع أيمن من المشهد، وتراجع خطوتين إلى الخلف، حتى يترك للرجل وامرأته مساحة كافية لتسوية الأمر فيما بينهما. وللحظة راودته فكرة أن ينسحب بهدوء، فمن الواضح أن وجوده لم يساعد أحدًا على الإطلاق، وأن سؤاله السخيف كان السبب في هذه الجلبة. التفت الرجل، الذي كان ما زال واضعًا يديه على فم زوجته، إلى أيمن، وبرباطة جأش مفاجئة ومخيفة في برودتها، أخبره بأن أمر الله قد وقع وأن غياث مات، وهم في طريقهم للندن لدفنه.

كان على أيمن مغادرتهم سريعًا، للحاق باجتماع في عمله، لكنه شعر بقليل من النذالة لاضطراره للاستئذان. وبعد أن فهم ملخصًا لسبب وجودهم في الميدان في ذلك الوضع الغريب، نصحهم بألا يلفتوا الانتباه، ففي تلك الأيام كان من الخطير أن تكون سوريًّا في مصر، وأن تلفت الأنظار لأي سبب. وهو كان يعني بنصيحته تلك أن تتوقف المرأة عن البكاء أو إبداء أيٍّ من علامات الحزن، وهو ما فعلته فعلًا، بعد أن كان زوجها قد نهرها عدة مرات.

حوالي الساعة الخامسة، عرف أيمن أن السفارة هاتفتهم بالفعل بعد لقائه بهم وطلبت منهم المجيء لاستلام الجوازات، وللأسف كانت دون

التأشيرة. كان القنصل بنفسه في استقبالهم هذه المرة وقد بدا محرجًا إلى أقصى حد وهو يعتذر مرة بعد الأخرى، فالقرار ليس في يده للأسف. واقترح عليهم إن أرادوا أن يسهل لهم إجراءات شحن الجثمان إلى القاهرة لدفنه فيها. وإن كان ذلك سيكلفهم مبلغًا معتبرًا. أما الحل الثاني فهو توكيل شخص مقيم في لندن ليقوم بإجراءات الدفن هناك. وفي هذه الحالة، كل ما عليهم فعله هو تزويد السفارة ببيانات الشخص المُوكَّل، وتوقيع استمارتين. والرجل كان متعاطفًا جدًّا وألمح إلى أنه يحبذ الخيار الثاني، حيث أن الأسرة لن تتحمل فيه أي مصروفات، وهو سيعمل على إتمام إجراءاته في نفس اليوم. وكان القنصل لطيفًا جدًّا، حتى أنه اعتذر عن إشارته للأمور الإدارية والترتيبات المالية في ظرف مثل هذا. ولم يستطع أبو غياث أن يرد، ولم تساعده زوجته بأكثر من أنها طلبت من القنصل مهلة حتى الصباح التالي.

باتت الأسرة ليلتها في بيت أيمن في السيدة زينب، وهي نفس الليلة الذي حدثني فيها بالتليفون. لم يستطع أبو الولد النوم وهو يحاول الإلمام بما حدث لهم. قبل ساعات فقط كان يتأهب للطيران هو وأسرته إلى لندن بلا عودة، والآن يحاول أن يفهم الحكمة في موت كهذا. كان قد اعتاد، أو لنقل تجرأ، على أخبار الموت، لم يكن أمامه خيار آخر. بل وحتى مواجهته وجهًا لوجه، أصبح هينًا عليه وعلى غيره، فأمه وأخان له ماتوا في غارتين منفصلتين وحمل هو ما تبقى من أجسادهم، لململها بيده قطعة قطعة. وخالة الولد اختفت ووجدوا جثتها ممزقة على قارعة الطريق. غرق ابن عمته هو وأسرته الصغيرة، وصديق الطفولة مات تحت التعذيب وخاف هو أن

يمشي في جنازته. أعمام ومعارف وأولاد خاله، وأصدقاء طفولة وأصهار وزملاء عمل وجيران قدامى ورفاق دراسة من المرحلة الابتدائية، كلهم ماتوا موتًا رهيبًا، واحدًا وراء آخر، وأحيانًا في نفس اليوم. كل هؤلاء كانوا في حساب الموتى بأي حال. لكن ما الحكمة في أن يتحمل المرء مشقة النجاة كل هذه المرات، حتى يموت مثل هذه الميتة، في العشرين من عمره ودون خدشٍ واحد، راقدًا على ظهره، وحيدًا وغريبًا، وبغير قاتل يمكن الانتقام منه أو كراهيته على الأقل!

لم يستطع أن يفكر الرجل في أبعد من هذا. ووقع عبء القرار على الأم، فهي من طلب المهلة. كانت تحاول أن تطرد من رأسها فكرة أنها لن تتمكن من رؤيته مرة أخرى، ولو ميتًا. وحاولت أن تنسى أن هناك موظفًا صغيرًا أو كبيرًا في مكتب حكومي في جهة ما في لندن، لم يرها في حياته ولم يعرف شيئًا عن ابنها أبدًا، ولا عن آلام ولادته القيصرية، ولا بكل تلك الدموع التي ذرفتها حين نظرت إلى وجهه الصغير لأول مرة. وحاولت أن تتجاهل تمامًا أن هذا الموظف قد اتخذ قرارًا بألا تحضر جنازة غياث. وبتوقيع صغير حرمها من أن تقبل وجه ابنها للمرة الأخيرة، وأن تطمئن لبرودة الموت في جسده، هكذا بكل تلك البساطة. ما أبشع تلك البساطة التي تقرر بها مثل تلك الأمور! وأي موت أحقر من هذا! أن يتحول الموت لمن في مثل ظروفهم، لجثمان، مجرد جثة ينبغي التخلص منها بشكل لائق، أو بأي شكل حتى. عدد محدود من الخيارات التي تحكمها التكلفة والإجراءات، ووعود حسنة النية بالمساعدة من غرباء. وعود صادقة لكن

لا يستطيعون تنفيذها في معظم الأحيان.

"الحي أبقى من الميت يا أم غياث، العيال الصغيرة دي أولى بالقرشين".

حسم أيمن، وبقليل من القسوة في صوته، الخيارات أمام المرأة. وهي لم تنبس بكلمة، هزت رأسها في استسلام، وهو ما اعتبره أيمن موافقة على الخيار الثاني. يُدفن الولد في لندن إذًا. وستقام له جنازتان، واحدة هناك وواحدة في القاهرة سيقوم هو بترتيبها بنفسه.

"يعني أعمله جنازة إزاي بس، أدفنه ماشي، إنما جنازة!"

بدا أنني مطالب بدفع تكلفة وعود أيمن العنترية لأهل الولد. ولم يعبأ هو باعتراضي:

"اتصرف، الموضوع مش صعب".

ولم يكن أمامي سوى التهكم. فلقد مر على ما أقوله دون أي اهتمام:

"لا بسيطة خالص".

ختم أيمن مكالمتنا، بنغمة أكثر حزمًا من التي بدأ بها، وكنت أنا قد تورطت تمامًا:

"مش وقت تهريج... آه بسيطة، وبكرة آخر اليوم يوصلك التوكيل".

الفصل الثاني

كان أكبر مني بعشرين عامًا، ومنذ أن غادر هو إلى إيطاليا، على واحدة من تلك المراكب التي تلقي حمولتها من البشر على بضع كيلومترات من الشاطئ لم أره أبدًا. عاد في زيارتين إلى مصر، بعد أن وفق أوضاعه القانونية هناك، وبدأ في العمل في مسح الحمامات بشكل قانوني. لكن لأسباب لا أتذكرها لم يحدث أن قابلته خلال هاتين الزيارتين، بالكاد أتذكر كيف كان يبدو شكله، نحيفًا جدًّا، هذا كل شيء، ولا تحتفظ ذاكرتي بشيء عن صوته. لكن بعد ستة أشهر من وصولي إلى لندن سمعت صوته مرة أخرى. بالصدفة، الرجل الذي لم يكن من عادته الاتصال بنا، هاتف والدتي قبلها بيومين في القاهرة ليطمئن على أخبارها. وهي أعلمته بالخبر السعيد. فأنا حصلت على وظيفتي الأولى هنا بعد شهور من الانتظار. وقرر هو أنه من الواجب أن يتصل بي ليهنئني، وطلب رقمي منها. المكالمة كانت طويلة

بعض الشيء، فالرجل الذي تركني طفلًا في العاشرة، أراد أن يعرف كل ما حدث لي أثناء ذلك الوقت. ولم أكن مستعدًا لكل هذا، واكتفيت بملخص جاف، عن الدراسة والعمل. وكان هو راضيًا بجوابي المقتضب. لكن ما استهلك الكثير من الوقت، كان اندهاش ابن خال والدتي من طبيعة الوظيفة التي حصلت عليها هنا.

كان الرجل مصدومًا وغير مصدق لأذنيه. وأعاد عليَّ أسئلته عدة مرات. وفي كل مرة كنت أجيبه، كنت أسمع تنهيدة خافتة على الناحية الأخرى من الخط أو شهقة من المفاجأة. وأفلتت مني بعض الضحكات مع أنني حاولت كتمها بقدر المستطاع. كان الرجل مغتبطًا إلى أقصى حد، وإن كان مترددًا في تصديقي بشكل كامل. وبين تلك الغبطة والتشكك، كان يعتري صوته شيء من الخجل، ربما لأن صيغة الحسد في تساؤلاته أصبحت واضحة لكلينا.

"يعني إنت بتشتغل في الحكومة؟"

ضغط الخال على مخارج الألفاظ في سؤاله، بغية التأكد من صدق ما سمعه.

"مش بالظبط يا خالو، في المجلس المحلي".

حاولت أن أقلل من أهمية الأمر، وتعمدت نبرة صوت ساخرة. لكن هذا لم يكن كافيًا لإقناعه.

"يعني في الحكومة. هوه المجلس المحلي ده إيه! ما هو حكومة. وبتشتغل في مكتب فعلًا؟"

كانت علامات الدهشة في صوته تتقافز، ولم يكن أمامي سوى مجاراته، وتأكيد انبهاره:

"آه والله يا خالو بشتغل في مكتب".

صمت الخال للحظة، وتابع أسئلته بنغمة أكثر رزانة وتمحيصًا:

"يعني وعندك كرسي بتاعك ومكتب بتقعد عليه وكده؟"

حاولت ألا يظهر في صوتي أي علامة على الضيق الذي تملكني بسبب إلحاح أسئلته، لكنني لم أستطع أن أخفي عدم حماسي للإجابة:

"آه والله عندي كرسي ومكتب وكمبيوتر كمان".

كانت تلك الإجابة، كافية، ليتهلل صوت الرجل بالفخر بإنجاز أحد أفراد العائلة في الغربة.

"ما شاء الله! وأول ما وصلت كده! ما شاء الله".

مرة أخرى، حاولت أن أضع الأمور في حجمها الطبيعي، مع أنني كنت متيقنًا أنه لا جدوى من ذلك:

"هيه وظيفة صغيرة، بس الحمد لله".

وبالطبع لم يكن راضيًا عن إجابتي، وارتفع صوته بخليط من الإثارة واللوم.

"صغيرة إيه بس، ده إنت عندك كرسي بتاعك... كرسي بتقعد عليه".

كان تذكر تلك المكالمة، وإلحاح خالي طانيوس في سؤاله عن الكرسي وجلوسي عليه مرة بعد مرة هو حيلتي للصبر على تلك الوظيفة لأكثر من تسعة أعوام. صحيح كان القبول بذلك العمل في قاع السلم الإداري حلًا مؤقتًا حينها، إلا أن الوظيفة ليست سيئة على الإطلاق. وأنا أكثر حظًا من كثيرين. أن أكون هنا في لندن ولديَّ وظيفة في الإدارة المحلية، أي وظيفة في الحقيقة، فهذا قدر لا بأس به من حسن الحظ. وحتى عيبها الوحيد، هو عيب كل الوظائف التي عملت بها من قبل. فهنا أو هناك لم أجد شيئًا لأفعله، أو القليل جدًّا. في مصر كان عليَّ التظاهر بالعمل. لكن هنا هذا ليس ضروريًّا، فمن حولي مشغولون بشكل دائم. وبالكاد يلاحظ أحد وجودي من عدمه، من فرط انهماك الجميع في مهامهم الوظيفية. وهذا الانشغال حيرني لوقت طويل، فكيف لهم أن يجدوا شيئًا يشغلهم إلى هذا الحد ولا أجد أنا أي شيء لأفعله. ولطالما لامني مُدرائي كوني كسولًا بعض الشيء. يمكن لواحد منهم فحسب أن يحمسني لأجد مهامًا لنفسي، تشغلني خلال ساعات العمل من حين لآخر. ومعضلتي لم تكن في ملء الوقت، بل في فعل شيء يمكنني التظاهر بأن له معنى.

ليس أمامي سوى تذكير نفسي بتلك المكالمة مع الخال، كل يوم، واليوم على الأخص. أنا لديَّ كرسي، وأجلس عليه.

أمسكت بمسندي الكرسي بكلتا يديَّ، وابتسمت.

تحسنت الأمور منذ جاءت حكومة المحافظين، وخفضت ميزانية قسم السكن الاجتماعي للنصف. وكان رؤساء الأقسام في كافة إدارات الحي قد توصلوا لفكرة نيرة للتعامل مع سياسة التقشف. فكلما نقصت المخصصات المالية، زادت الاستمارات التي يجب أن نتعامل معها، والجداول التي نملؤها، والتقارير التي نعدها، والاجتماعات التي نحضرها. لم يكن هناك ما نستطيع أن نقدمه بالفعل، فلم يتبقَ الكثير من وحدات السكن الاجتماعي بأي حال، وطوابير الانتظار تجاوزت المليون طلب. وكان السبيل الوحيد والفعال لمواجهة الموقف، هو المزيد من المعاملات الورقية، وإطالة المدة التي تأخذها دورتها لبضع سنوات.

وحتى يحدث هذا، وتأخذ الدورة وقتها لتكتمل، يجد الموظفون شيئًا ليشغلهم على الأقل. تجميع البيانات وإدخالها على "السيستم" ثم تحليلها ومراجعتها كل حين وآخر، وإعادة التحليل وتنسيقها في جداول ورسوم بيانية ثم إعادة تجميع البيانات، ومقارنتها بالبيانات السابقة وهكذا. أما مقدمو الطلبات، فخلال إقامتهم الطويلة في محال السكن المؤقتة وتمرغهم في الفقر المقنن، وجدوا ما يمنحهم بعض الأمل عامًا بعد آخر. وكان صكه هو تلك الاستمارة الرسمية صفراء اللون، وخليط من الإيمان بدولة الرفاه، ورجاء بأن يأتي تنسيق البيانات بنتائجه المرجوة. ولا تبدو تلك فكرة جديدة تمامًا، فغالبًا هذا منطق البيروقراطية منذ زمن طويل، أن تجد حلًا لمأزق الفراغ لدى البعض، وأن تمنح البعض الآخر الأمل في أن دورة من المعاملات مهما طالت لا بد ستصل يومًا ما لنتيجة.

وكنت قد قرأت كتابًا شائقًا جدًّا عن مصر القديمة، لا أذكر اسمه الآن، يؤكد نظريتي. فالفراعنة لم يقوموا ببناء الأهرامات، وغيرها من المشروعات الفخمة عديمة المنفعة سوى لسد فراغ الناس في موسم الفيضان، حين لا يكون هناك لا زرع ولا قلع. وذلك خوفًا عليهم من التساؤلات الوجودية، وأزمات منتصف العمر، والوحدة التي تجلب الفكر، وعدم السكينة وغيرها من الأمور السيئة التي تحفزها أوقات الفراغ.

اليوم وجدت صعوبة في طمأنة نفسي بتذكر مكالمة الخال. فكل ما كان يشغل ذهني هو تلك المكالمة التي تلقيتها من أيمن الليلة السابقة، وموضوع الجثة والجنازة. فلم أستطع النوم سوى ساعتين فقط، وبالطبع مزاجي ليس في أفضل حال. وآخر ما كنت أحتاجه هو أن أجد ذلك الإيميل في صندوق بريدي، معنونًا: "زيارة منزلية مشتركة مع وحدة الرعاية النفسية، الساعة 11:00".

وفي الأيام العادية، ليست هذه بمهمة مزعجة على الإطلاق، فهي فرصة للخروج من المكتب والتمشية قليلًا، هذا غير الإثارة التي تتضمنها زيارة مريض تم إطلاق سراحه حديثًا من مشفى العلاج النفسي، والاستماع لكل تلك القصص والتخريفات، والتي لا تخلو من خيال وقدرة عالية على التأليف من جانب المرضى. وحتى في الحالات التي يصادفنا فيها مريض مزعج بعض الشيء، فأنا لست مطالبًا بفعل الكثير، فوجودي في كل تلك الزيارات في الحقيقة شرفيًّا. فموظفو وحدة الرعاية النفسية، الذين أرافقهم، هم من يقومون بالمهمة كاملة. فهم من يجرون الفحوصات

النفسية اللازمة لتحديد مدى قدرة المرضى على العيش المستقل، أو إن كان وضعهم النفسي يتطلب منحهم أولوية في طابور الانتظار للحصول على شقة للسكن الاجتماعي. وفي الحقيقة هم متمكنون من عملهم إلى أقصى درجة، وإن كان لديهم نفس قناعتي بأن دورهم في العملية برمتها لا يتعدى أن يكون شرفيًّا. فنتيجة الاختبار لا تفرق كثيرًا بأي حال، فليس هناك شقق للتسكين، وينتهي الحال بمعظم المرضى إما إلى انهيار أعصابهم والعودة للاحتجاز في المستشفيات، أو ببساطة محاولة الانتحار نتيجة الأوضاع السيئة في السكن المؤقت وطول الانتظار.

وفي المرات التي تنجح فيها تلك المحاولات، يثور خلاف كبير بين إدارتنا وإدارتهم حول المسؤولية. فهم يلقون بها علينا ويجادلون بأن "النزيل" كان يجب أن يتم تسكينه منذ زمن طويل في ظروف مستقرة. ومديرونا يجادلون بأن سلامة المرضى النفسية هي مسؤوليتهم هم، وأن "المريض" كان يجب أن يكون مكانه الصحيح في المستشفى. وبالرغم من الاختلاف الظاهري بيننا وبينهم، واللعب بالكلمات في توصيف الضحية، فالأكيد أن كلا الإدارتين لديهما إيمان عميق بالمبنى. وهم محقون تمامًا، فكل مشكلة اجتماعية يمكن حلها وكل حياة يمكن وضعها على الطريق الصحيح، إن وجدنا المبنى المناسب لها: فالجريمة يمكن استئصالها بالسجن، والمرض في المستشفى، والتعامل مع الشيخوخة بدور المسنين، وتدجين الطفولة في المدرسة، والفقر بالسكن الاجتماعي، وهكذا. وفي النهاية فإن تلك المآسي الصغيرة تحدث حين يوضع المرء في المبنى الخطأ، أو ألا تكون هناك شواغر

كافية في تلك المباني الصحيحة. وهذه أمور لا تزعجني على الإطلاق، فالمديرون الكبار جدًّا هم من يقومون بعملية التبديل والتوفيق المعقدة. ويتولون تنسيق مهام نقل المرء من المشفى إلى السجن، ومن المدرسة إلى المكتب، ومن المصنع إلى دار المسنين، ومن المكتب إلى السجن، ومن السجن إلى دار السكن الاجتماعي، وهكذا حتى ينتحر أحدهم أو يموت بشكل طبيعي. وبتلك الطريقة يتوفر مكان شاغر لإنقاذ شخص آخر.

ولم يكن هناك سبب للانزعاج من زيارة اليوم، لولا أنني لا أحب المفاجآت وما تحمله من عدم يقين، فأنا أُفضِّل أن تكون الخطوط العامة للمستقبل مرتبة مسبقًا على الأقل في العمل. وصلني الإيميل من العنوان البريدي العام للقسم، وليس باسم أحد موظفيه كالعادة. ومن واقع خبرتي الطويلة هنا، فلديَّ أسباب كافية للتوجس حين تصلني تلك الرسائل ذات المصدر غير الشخصي. فغالبًا ما يكون الغرض من تجهيل صاحبها، هو تفادي مشكلة بعينها، أو التملص من المسؤولية وإلقائها على كيان اعتباري مبهم هو "القسم". وأحيانًا ما تكون تلك الإيميلات محاولة للتظاهر بالقوة في وجه متلقيها، وتعجيزه أمامها لغرض ما. فمراسلات "القسم" تبدو نهائية وحاسمة، ولا يمكن مراجعتها، أو الرد عليها. ففي حالات قليلة، حاولت الاتصال برقم الهاتف المذكور في مراسلات من هذا النوع. وطلبت الحديث مع كاتب الإيميل، أو أن يضعوني على الخط مع القسم نفسه، حتى يمكنني الحديث معه شخصيًّا وكانت النتيجة دائمًا مؤسفة.

وبالرغم من ذلك، تحاملت على نفسي واتصلت بهم، للاستفهام عن

اسم الموظف الذي سيرافقني في الزيارة. وجاءني الرد من سكرتيرة القسم، بنبرة عدائية مفاجئة، لا يحتملها الموقف:

"أي فرق سيمثله ذلك لك؟ أي موظف من الممكن أن يحل محل موظف آخر، أليس ذلك هو الحال في قسمكم أيضًا، وكل الأقسام؟"

يبدو أنها كانت على وشك الانفجار لسبب ما، وجاءت مكالمتي في التوقيت الخطأ. وحاولت تهدئة الموقف، بالسخرية من نفسي:

"بالطبع. بالطبع، أنا فقط أعاني من الوسواس القهري كما تعرفين. راجعي جدول العمل، من أجل خاطري".

أطلقت زفرة طويلة، لا تتناسب مع المشقة التي ستتحملها لتلبية طلبي المتواضع، وأجابتني بصوت يملؤه الضيق:

"حسنًا، لسبب ما، لا يوجد اسم محدد على الزيارة. لكن غالبًا إما بيبسي أو كتاجينا، من سيذهب معك. هل هذا مطمئن لوسواسك بما يكفي!"

اكتفيت بإطلاق زفرة انتقامية من جانبي، ورد قصير:

"ليس تمامًا، لكن شكرًا بأي حال".

أغلقت هي الخط، قبل أن أكمل جملتي. ولم يزعجني هذا كثيرًا، فهي زودتني بما أردت أن أعرف، وكان سماع اسمي بيبسي وكتاجينا سببًا كافيًا لابتهاجي.

بيبسي هي المفضلة لديَّ من بين موظفي القسم، وأكثرهم غرابة أيضًا.

وبيبسي هو اسمها فعلًا، ولها اسم عائلي أكثر غرابة، "ماكميلان". وذلك الاسم الإسكتلندي ليس مُستغربًا في المطلق بالطبع، لكنني ظننت أنه لا يناسب لهجتها الكاريبية، ولا لون بشرتها السوداء.

وهي أخبرتني في لقائنا الأول، وبدون أي سياق، بأن جدها الأكبر، كان إسكتلنديًا فعلًا، وأن جدتها كانت واحدة من عبيد مزرعة القصب التي كان يمتلكها في جامايكا. وبلا سياق أيضًا، سألتني بيبسي بنفس الأريحية عن عرقي. توترت قليلًا من وقاحة السؤال، وكذلك لأنني لم أكن جاهزًا بإجابة دقيقة له. لكنني قفزت إلى أول شيء جاء في ذهني:

"شمال إفريقي".

حملقت في وجهي، وظهر في عينيها شعور بالإهانة، ورفعت صوتها، بنبرة من التحدي:

"لا، أنت لست إفريقيًا".

واستفزتني طريقتها الواثقة أكثر من اللازم، وحاولت أن أخفي غيظي، وراء بعض السخرية:

"هل تعرفين عني أكثر مني! أنا من مصر. ومصر في إفريقيا".

استقبلت سخريتي بابتسامة مستخفة، وقلبت عينيها دلالة على الاعتراض.

"أنت لست إفريقيًا، أنا إفريقية أما أنت فلا".

ارتفع صوتي رغمًا عني فتصميمها كان مثيرًا للغضب:

"هل ذهبت لإفريقيا من قبل؟"

تظاهرت بأنها لم تلتقط صيغة الاستنكار في صوتي، وأجابت بصوت شديد الثقة:

"أبدًا، لكنني إفريقية، أما أنت فلا، ولو عشت في إفريقيا كل حياتك".

لم يكن هناك أي فائدة من النقاش معها، لكنني انجرفت لذلك التحدي الصبياني:

"من قال هذا؟"

وجاءت إجابتها قصيرة وحادة وحاسمة:

"أنا".

خيمت لحظة من الصمت، قبل أن أعاود الكرة مرة أخرى، وكانت هذه رميتي الأخيرة.

"طيب، ما دمتي تعرفين كل شيء هكذا، ما هو عرقي إذًا؟"

ومرة أخرى، كان صوت بيبسي متباهيًا جدًّا، وفي منتهى الوقاحة وهي تجيبني:

"لا أعرف، لكن بالقطع أنت لست إفريقيًّا. طالما أن بشرتك ليست سوداء، فأنت لست إفريقيًا"

تنتهي المناقشة دائمًا هنا. فمن الصعب التغلب على بيبسي في أي جدل،

فلديها طريقتها في فرض ما تظنه على الآخرين. فهي من أقنعني بصبغ شعري، مثلًا، بعد أن بدأت تظهر برأسي خصلات بيضاء وأنا ما زلت في سن الثلاثين. وطالما سخرت مني، وعيرتني بأنني أبدو أكبر سنًا منها. وكانت على حق، فبيبسي كانت في سن الستين، لكن بدت في الثلاثينيات من عمرها، أطول مني قليلًا، بجسد رياضي مفتول، وملابس زاهية، وسيارة رياضية، وصوت عالٍ يتفجر بالحياة والإثارة. وفي اليوم الذي جلبت معها أنبوبة لصبغة الشعر، وأرغمتني على وضعها في جيبي، عرفت أنني دخلت إلى عالمها بالفعل. فبيبسي مهووسة بصبغ الأشياء، وخصوصًا البشري منها. ما يلفت النظر إليها في أي مكان تذهب إليه، هو الطبقة الكثيفة من الغبار الأبيض الذي يغطي جلدها، وجهها وذراعيها وساقيها، وكل ما هو مكشوف من جسدها. وأنا كنت مترددًا في سؤالها عن الأمر في البداية، ظنًّا مني أنه ربما يكون علاجًا لمرض جلدي. لكن وبعد ما رأيتها في أحد الأيام، واقفة على محطة للباص، وبكل أريحية تطحن إصبعًا من طباشير المدارس، وتلحوس به وجهها، تجرأت وسألتها عن الأمر. وكانت إجابتها خبلًا كاملًا، لكنني وجدت بها الكثير من حكمة المجاذيب:

"يا صديقي! ربما تظنني مجنونة تمامًا. وأنت معذور، فأنت لا تدري ما يعني أن تكون أسود في عالم أبيض. أمامك خياران لا أكثر. إما أن تصبغ جلدك بالأبيض، وسيسخر منك الجميع، وتظل تحاول كل يوم، بإضافة طبقة فوق أخرى من الصبغة، حتى تبدو مقنعًا. أو أن تكون عدميًّا، وتسخر من اللونين. وهما حلان، الواحد منهما أقسى من الآخر، ولذا اخترت الاثنين

معًا، أن أتماهى وأن أصنع من عالمهم أضحوكة كبيرة" .

ومنذ تلك الواقعة، أضحت علاقتنا أكثر عمقًا من أي وقت مضى، فهناك أشياء كثيرة منها كانت تذكرني بأمي، لكني أصبحت مترددًا في تفسير الغرض من هدية صبغة الشعر التي تجلبها لي كل شهر. فهل كانت تريدني أن أتحايل على العمر بها؟ أم أرادت أن أفعل مثلها، وأستخدمها لصبغ جلدي، لعلي أعرف حقًّا معنى أن أكون إفريقيًّا في هذا العالم؟ لم أتجرأ أبدًا على سؤالها.

أما كاتجينا فهي الصورة المعكوسة لبيبي. فهي في نهاية العشرينيات، ومظهرها مطابق لعمرها بالفعل، لكنها تتكلم كامرأة على المعاش، ولديها أقل قدر ممكن من الحماس تجاه أي شيء وللحياة إجمالًا. وتعاني من أزمة مع اللون أيضًا، لكنها معكوسة. فكاتجينا هي الموظفة البيضاء الوحيدة في القسم، والآخرون جميعهم ملونون بدرجة أو بأخرى. وهي تعرف كما نعرف نحن أيضًا، أن طبيعة العمل الذي نقوم به، إزالة ركام المجتمع، والبحث عن ناجين أسفله حينًا، والتواطؤ على دفنهم هناك حينًا آخر، أمر لا يقبل عليه البيض بأي حال، وخاصة في قاع السلم الوظيفي. والاستثناء الوحيد هو أن تكون مثلها من شرق أوروبا، ويائسًا تمامًا أيضًا. وبسبب ذلك فهي تسعى طوال الوقت، لتذكير نفسها أنها بيضاء، بل وشقراء، وتفعل ذلك بالتعامل ببعض التعالي مع الجميع سواء من الموظفين أو المرضى.

وهذه كلها أسباب لتنفيري منها، وكان ذلك هو الحال، حتى ذلك

اليوم الذي قررت فيه أن ترفع الكُلفة بيننا. فبعد أن اكتشفنا في واحدة من زيارات العمل المشتركة، أن كلانا يقرأ في نفس الوقت نفس الرواية لكاتب تشيكي، غيرت هي فجأة من طريقتها المتحفظة في الكلام، بل ودعتني لأن نقضي استراحة الغداء معًا في مطعمها المفضل. وهذا ما حدث فعلًا، قضينا ساعتين معًا، بدلًا من ساعة واحدة، أمضتها هي في الشكوى من كل شيء، من بلدها التي جاءت منها، ومن لندن، ومن العمل، وسكنها الضيق، كل شيء حرفيًا. وأنا كنت أهز رأسي، متظاهرًا بالتعاطف في ملل إلى اللحظة التي فتحت فيها قلبها، وبدأت بإخباري عن رأيها بالفعل في العمل الذي نقوم به. وهي كانت صادقة إلى أقصى حد، وهي تخبرني بالأمر، بلغة شعرية. وحينها فقط لمحت توهجًا خافتًا من الغضب في عينيها الزرقاوين، الباردتين كبحيرة راكدة.

"كل ما نفعله هنا، هو إهدار للموارد، وتعذيب لكل تلك النفوس البائسة التي يجدر بها أن تترك لتموت في صمت".

لم أصدق ما سمعته، وسألتها ممنيًا نفسي بأنني ربما قد أسأت الفهم:

"ماذا؟ ماذا تعنين؟"

زاد توهج عينيها، وظهر في صوتها حماس ظننتها غير قادرة عليه:

"أنت تفهم ما أعني، لا يجب تحميل المجتمع كل تلك الكُلفة... علينا أن ندع الطبيعة تقوم بمهمتها في تشذيب الحياة. هؤلاء الذين يستطيعون

البقاء بأنفسهم، دون إعانات وسكن اجتماعي وغيره، هم وحدهم الجديرون بالعيش".

حاولت أن أجد لها مخرجًا، ولنفسي أيضًا، وأتيح لها مساحة للتراجع:

"ولماذا تقومين بهذه الوظيفة إذًا؟!"

وبصوت يستجدي التعاطف، أغلقت الباب على أي فرصة للتنصل مما قالته:

"سوء الحظ، أو ربما قلة الحيلة. أحتاج لوظيفة لأدفع الفواتير مثلك تمامًا".

للوهلة الأولى، انتابتني رعدة خفيفة من الخوف ورغبة بالقيء. فأنا أمام امرأة تعمل مع مرضى عاجزين عن حماية أنفسهم، وهي نفسها المستأمنة على رعايتهم تظن أنه من الأفضل أن يُتركوا للموت. لكن شيئًا لم يكن يخطر ببالي أبدًا قد حدث. فبينما كنت أحملق فيها، محاولًا استيعاب ما سمعت، اقتربت هي مني، وهمست في أذني، بصوت ناعم ومفعم بالسيطرة: "خفت مني، صح؟"

هززت رأسي بالإيجاب، ورعشة من اللذة سرت في ظهري، وظننت أن نبضات قلبي المتسارعة كانت عالية بما يكفي حتى تسمعها هي والآخرون في المطعم. وكان عليَّ أن أضع حقيبتي على فخذي حتى أخفي انتصاب عضوي، الذي أصبح مؤلمًا وظاهرًا. لمحت هي ما أفعل، وعبرت عن

رضاها بأن رجعت بظهرها مرة أخرى إلى الخلف، وأسندت ظهرها على الكرسي، بارتخاء يتفجر بالثقة المغوية:

"جيد أنك خفت".

كان هذا سرنا الصغير، لم نتكلم مرة أخرى في الأمر، وتظاهرنا بأن شيئًا لم يحدث. فكرت أكثر من مرة أنه من واجبي الإبلاغ عنها لإدارة القسم، كان هذا سيكون بلا طائل، فهي غالبًا ستنكر، وستكون كلمتها أمام كلمتي، فلا يوجد شهود. وهي في الحقيقة موظفة مجتهدة بشكل كبير. وفي الغالب، ما قالته مجرد تنفيس عن غضبها تجاه أشياء أخرى في حياتها لا أكثر، ولن تقدم على عمل يضر بأي من المرضى. وحتى لو أرادت فلن تستطيع. فربما الحسنة الوحيدة للبيروقراطية، وقواعدها وقيودها الكثيرة، أنها تمحي ميولًا شخصية من هذا النوع، وتقمع مثل تلك الآراء الفردية التي لا تتماشى مع النظام العام، كما تقمع أي ميول أخرى أو آراء خيرة. لكن أكثر ما صدني عن التفكير في الإبلاغ عما قالته، هو خوفي من خسارة تلك اللذة التي تشتعل في داخلي كلما رأيتها أو فكرت فيها. وبالطبع أشعر بالذنب في كل مرة. ولا أعرف إن كان ذلك الشعور يصيبني بسبب اللذة، أم العكس، أي أن تلك اللذة تحديدًا تتملكني بسبب شعوري بالذنب.

ولا أجد تفسيرًا للأمر برمته، سوى أن هناك شيئًا مغريًا ومثيرًا في الشر، يدفعني لاشتهائها في خيالاتي. وكأنني ومن فرط الإرهاق من معافرة العالم، أجد سلوانًا في تلك اللحظة التي أنسحق فيها أمام الشر. ربما الاستسلام

هو المغري في الأمر، التجرد من كل شيء، وأن تترك نفسك لاشتهاء الشر بلا مقاومة. لم يكن هناك أمل في أن تتعدى تلك العلاقة مجرد الخيالات، فلقد عادت لتحفظها المعتاد تجاهي، وزادت عليه الكثير من التعالي والاحتقار في نظراتها. وكان كلانا يعرف أن هذا سيثيرني أكثر، لكن اتفاقًا ضمنيًّا بيننا كان قد وضع حدًّا لما يمكن أن نصل إليه معًا، حتى تظل الرغبة بلا إشباع أبدًا ومتوهجة.

كان احتمال رؤية كاتجينا في الزيارة قد بدأ في إثارتي. وكنت على وشك أن أخطو إلى واحد من أحلام اليقظة التي تبتلع معظم نهارات العمل، لولا أنني تنبهت أنه لم يعد أمامي سوى ربع ساعة لمغادرة المكتب وتجهيز نفسي لموعد الساعة الحادية عشرة. صحيح لن يكون لي دور في الزيارة نفسها، لكن على الأقل يجب أن أكون ملمًّا بخلفيات الملف (وحين نقول نحن هنا في القسم كلمة "الملف"، فنعني المريض أو المريضة، وأحيانًا نشير إليهم باسم الحالة، وأنا أفضل الملف على الحالة، لأنها ربما أكثر حيادًا وواقعية). كان الإيميل قد وصلني ومعه عدد لا بأس من الملحقات، والتي نطلق عليها في القسم: "الأدب الإداري"، وهي أدب بكل معنى الكلمة.

"ديرين جاءت إلى العيادة، اليوم بملابس زاهية، وفي حالة مزاجية عالية جدًّا. هذا عيد النيروز كما فهمت منها. كانت تبتسم طوال لقائنا، وحين أعطيتها الروشتة وسألتها عن الآثار الجانبية لمضادات الاكتئاب. أخبرتني أنها لن تحتاج للعلاج قريبًا. ونصحتها بألا تتوقف عن تناول الدواء قبل مناقشة الأمر معي".

"التقيت النزيلة (أ)، لأول مرة مساء أمس. كانت في حالة من هياج شديد. احتاج الأمر نصف ساعة من الصراخ المتواصل والبكاء قبل أن تهدأ وتخبرني بمشكلتها. قالت إنها لم تعد تستطيع الانتظار أكثر من ذلك. حياتها كلها مؤقتة، لحظة طويلة من الانتظار، والانتظار يجلب انتظارًا. حين جاءت إلى لندن، كان عليها أن تنتظر سنوات حتى تحصل على حق اللجوء، وحتى تنظر المحكمة في تظلمها على رفض طلبها، وحتى تحكم المحكمة الأعلى في استئنافها. أخبروها بعدها أن عليها الانتظار ثانية حتى تحصل على أوراقها وبعدها الإقامة الدائمة. أعلموها بأن عليها الانتظار حتى تنقل لسكن مؤقت، وبعدها حتى يتم وضعها على السيستم للسكن الدائم. كما كان عليها أن تنتظر موت زوجها أو موتها هي حتى يتوقف الضرب. ومات هو، لكن الضرب لم يتوقف، فبعد أربعين عامًا من الصبر على الضرب، بدأ ابنها وزوجته في ضربها. كانت تعد الأيام في السجن، وبعدها وجدت أن عليها أن تنتظر حتى يطلقوا سراحها من المستشفى. كل مرة يأتي شخص ويخبرها أن عليها الانتظار، يأتي الجميع ويملؤون استمارة صفراء وراء استمارة صفراء ويطلبون منها الانتظار".

"السيدة (أ)، في الخامسة والستين من عمرها، تركية الجنسية، وتتحدث الكردية، وبعض الكلمات القليلة بالإنجليزية. وصلت إلى المملكة المتحدة قبل عشرة أعوام، وحصلت على حق اللجوء منذ ثلاثة أعوام. تعرضت السيدة (أ) لخبرات سيئة في الماضي، في بلدها الأم. في ديسمبر 2015 أحالها الممارس العام إلى قسم الرعاية الاجتماعية بسبب عزلتها وتعرضها للعنف

المنزلي على يد ابنها. رفضت السيدة (أ) الانخراط في برامج الرعاية التي قُدمت لها، وكان التواصل معها بالرغم من وجود مترجم، صعبًا للغاية. في مارس من 2016، تم إلقاء القبض على السيدة (أ) بعد اتهامها بإشعال حريق متعمد في بيت ابنها. وبنهاية العام، حكم عليها بالسجن لمدة تسعة أشهر. وقامت إدارة السجن بعد أسبوعين من تنفيذ العقوبة، بتقديم طلب لتوقيع الكشف الطبي عليها ونقلها إلى مؤسسة للأمراض العقلية نتيجة تدهور حالتها النفسية. تعاني السيدة (أ) من هلاوس سمعية وبصرية، تحرضها على إيذاء نفسها والآخرين، لكنها تستطيع التحكم فيها مع المداومة على تناول الأدوية الموصوفة لها. تم الإفراج عن السيدة (أ) بعد تحسن حالتها، وتقيم في نزل السكن الاجتماعي المؤقت، في انتظار نقلها إلى السكن الدائم. هي لا تستطيع العودة للإقامة مع ابنها. وليس لديها موارد مالية للحصول على سكن خاص.

غير ذلك، تستطيع السيدة (أ) العناية بنفسها جسديًا بشكل جيد، تدخن كثيرًا، مما يزيد خطر اندلاع حريق جديد. ليس لديها أصدقاء، أو اتصال بأي أقارب في لندن. الرجاء اتخاذ الإجراءات اللازمة لنقلها إلى السكن الدائم بأسرع ما يمكن، حيث أن الوضع المؤقت لا يساعد على تحسن حالتها النفسية".

"المريضة تعاني من اضطراب في الشخصية، ويبدو أن حالتها تدهورت مؤخرًا. فهي تدعي أن ابنها وزوجته يقومان بضربها، ولا يوجد دليل على

ادعاءاتها. وابنها أخبرنا بأنها هددت بإشعال النار في شقته. المريضة تشكل خطرًا متوسطًا على نفسها وعلى من حولها والعامة. وبالأخذ في الاعتبار أنه لم يسبق لها تنفيذ أي من تهديداتها في الماضي، فلا يوجد ضرورة لاتخاذ أي إجراء، سوى متابعة حالتها عن قرب من طرف أسرتها".

"رفضت السيدة (أ) التجاوب مع المترجمة، وقالت إنها لا تتحدث التركية. لكن السيدة (أ) اشتبكت في حوار غاضب مع المترجمة أمامي. ولاحقًا عرفت أنها تحدثت إليها بتركية سليمة. حسب ما يتوفر لنا من دلائل، هي تتحدث التركية، وبعض العربية. لكنها تصر على الادعاء بأنها تتكلم الكردية، واتضح لنا أنها لا تجيدها على الإطلاق".

"اشتكت المريضة، ديرين، من كابوس يزورها كل ليلة. ترى طيورًا ضخمة تحلق في الهواء، وتسقط عليها كرات من لهب. تهرب هي قافزة من جبل إلى جبل، وبعد أن تظن أن الطيور قد فقدت أثرها. تهاجمها طيور تأتي من الجهة الأخرى. ويبدو أن الحلم يتعلق بخبراتها المؤلمة في تركيا، وانتقالها بعد ذلك إلى العراق بعد زواجها".

"بعد المعاينة، السكن المؤقت لا يناسب النزيلة المشار إليها، فالقبو الذي تقيم به قليل التهوية، ويمكن رؤية أثر الرطوبة على الجدران. المكان لا يتوافق مع اشتراطات الصحة والسلامة، ويجب نقل النزيلة في أسرع وقت ممكن. وضعنا نفس التوصيات في تقريرنا قبل ثلاثة أشهر ولم نتلقَ من قسمكم أي رد بعد".

لم يكن لدي وقت كافٍ، لقراءة كل شيء، فملف المرأة مكتظ بالمراسلات والتقارير، والروشتات، وقرارات المحاكم وأوامر الاحتجاز الطبية، ومرافعات المحامين، ومحاضر البوليس. كان هناك ما يكفي لكتابة ثلاثية روائية متوسطة الحجم. لكن وبفضل الخبرة الطويلة في هذه الإدارة، فقد طورت بعض المواهب في التعامل مع نصوص الأدب الإداري تلك، فيمكنني اعتمادًا على الحدس وحده أن أميز بين التقارير المهمة والتقارير الروتينية متواضعة الأهمية، بمجرد النظر إلى أول سطر وآخر سطر منها لا أكثر.

ويمكنني قنص الفقرات المهمة في كل وثيقة دون الحاجة لقراءة كامل النص. ويعتمد عدد الفقرات ذات الحيثية ومكانها وتوزيعها على نوع الوثيقة وعلى كاتبها، وهذه تفاصيل يطول شرحها.

وفي معظم الأحيان يمكنني أن أحزر كاتب التقارير، دون النظر إلى اسمه أو وظيفته، كما يمكن للمرء أن يحزر اسم كاتبه المفضل بقراءة فقرة واحدة من إحدى رواياته. فلكل قسم تقاليده في الكتابة وأسلوبها، والتي يتناقلها جيل بعد آخر من الموظفين، دون تعمد أو تخطيط مسبق. ولكل مهنة طريقتها في السرد وتفاصيله، ونوع مختلف من العواطف والهموم التي تظهر في النص. والأهم أن كل مهنة لها شفراتها الخاصة، والتي لا يفهمها غيرهم. ولطول تمرسي في كل هذا، فيمكنني الفصل بين الاختصاصي النفسي والمعالج النفسي مثلًا بعد أول سطرين، فالأول أكثر رسمية ومهتم بالتشخيص ونتائج الاختبارات، والثاني يشير إلى المريض باسمه الأول

ومعني بالماضي والتراجيديا. وأستطيع أيضًا أن أفرق بين الاختصاصي الاجتماعي وموظف الإسكان بعد ثلاث جمل لا أكثر، فالاثنان معنيان بإعادة التأهيل، لكن الأول مهتم بالقانون، والثاني يظن أن كل شخص يمكن إصلاحه لو وضع في شقة جيدة التهوية، وتدخلها الشمس في الصباح. أما تقارير الطبيب النفسي والشرطة فأحيانًا تبدو متطابقة، ويحتاج الأمر تدقيقًا في فقرة أو اثنتين على الأقل، حتى أستطيع التمييز بينهما. فالاثنان ضد المريض غالبًا. لكن الأول كافٍ لاحتجاز شخص ضد إرادته، أما في حالة الثاني فإن الشرطة تحتاج لحكم محكمة. وهناك فوارق شخصية بالطبع، لا تتعلق بالمهنة بالضرورة. ولذلك التقرير الذي يبدأ بـ"جاءت ديرين... بملابس زاهية"، لا بد وأن يكون كاتبه الدكتور كومار، الممارس العام، فمن مثله يكتب بتلك الكلاسيكية، والحس الشاعري.

لا يوجد ما يسترعي الانتباه في هذا الملف. الخليط المعتاد، خبرات سيئة في الماضي، مشاكل في التواصل اللغوي، عنف منزلي، وبطء في الإجراءات الإدارية، وسوء تنسيق بين الأقسام، ينتهي بالشخص إلى المشفى النفسي أو السجن، وفي حالتنا هذه إلى الاثنين. ولا تساعد قراءة الملفات في معرفة الكثير عن النزيل، فهي غالبًا متضاربة، كأي شيء سيكتب عنه عشرة أشخاص من عشر زوايا مختلفة. ففي حالتنا هذه مثلًا لا يمكن الجزم فعلًا إن كانت المرأة ضحية العنف المنزلي، أم أن كل ادعاءاتها ضد ابنها مجرد هلاوس ولا يمكن التأكد حتى من اللغة التي تتحدثها على وجه الدقة. وهذا ما يجعل من الأرشيفات الإدارية مصدرًا جيدًا للتاريخ، كونها متضاربة تمامًا، كأي

شيء تاريخي. لكن المثير في ذلك الملف تحديدًا، هو ذلك الشعور الغريب الذي تسرب لي وأنا أقرؤه، بأن صاحبته كانت تتعمد بشكل ما أن توظف كل تلك الفوضى من حولها، لترغم كل هؤلاء الموظفين والمتخصصين والأطباء والإداريين أن يكتبوا عنها حتى ولو بلغة لا تعرف منها كلمة واحدة. وكأنها أدركت أنه لا يمكن إصلاح حياة محطمة إلى هذا الحد، وأنه ليس أمامها سوى أن تعطي لكل هذا البؤس معنى ما، أن تورط آخرين فيه أو على الأقل في روايته وتسجيله، وأن تترك آثارًا وراءها. فحين تنتهي حياة السيدة (أ)، ستكون خلفت بعدها الكثير من الأحزان، والمخاطر، والكوابيس، التي ستكون مخزنة على السيستم، بتفاصيل دقيقة من أول زهو ملابسها في يوم النيروز إلى تحليل دقيق لرمزية الطيور في أحلامها. ولعل أحدًا ما سينبش في كل هذا، يومًا ما، ويتذكرها، ويشعر بقليل مما شعرت به.

كانت تلك الأفكار قد تبخرت في ذهني، وأنا أجهز حقيبتي لمغادرة المكتب. وبمجرد أن خطوت إلى الشارع، ضربتني صفعة من الهواء الساخن في الخارج، وشعرت ببعض من الغبطة والرضا عن النفس تجاه المهمة التي كنت على وشك تنفيذها، فأنا وسيط في منح هذه المرأة المسكينة بعضًا من الرجاء في الخلود، أو ما نطلق عليه لدينا في القسم تهكمًا، "الأبدية الإدارية".

الفصل الثالث

كل تلك المنازل المصفوفة واحدًا وراء الآخر، بأسطح القرميد المثلثة التي تعلوها، بنفس الأبعاد والألوان والنسب. لا مهرب من سطوة تكرارها وقسوة مقاييسها شديدة الدقة. تنعطف يمينًا أو يسارًا. تقطع الطريق على الأقدام، أو تركب الباص ذا الدورين وتنظر من شباكه إلى أسفل، أو تهيم في الحدائق نصف مستيقظ ونصف غارق في أحلام الصحو، فلن ترى سوى ذلك النموذج. نفس المنزل مكررًا، واحدًا وراء الآخر، وشارعًا وراء شارع، وحيًا وراء حي. تبدو أحياء لندن، ككل مدينة أخرى تبدو وكأنها للعمال، ولم يعد بها لا مصانع ولا عمال، لكن بقي فيها روح المصنع، وأشباح ضحاياه.

نسخة واحدة، تعيد نفسها إلى ما لا نهاية. كانت الحكمة من وراء البيت الفيكتوري هي أن ذلك الانتظام في الشوارع، يبعث على الخضوع والهدوء

في نفوس سكانها، وكانت ضريبة ذلك الكثير من السأم بالطبع. وربما كان هذا السأم مقصودًا، فالبيت الفيكتوري، كان حلًّا سحريًّا في زمنه، لتحل البيروقراطية في عالم البصر، أن تتعود العين على الروتين، كما الروح، وأن يصبح التكرار طبيعة الأشياء، الزمن والرؤية والمسافة ويوم العمل. وليس هناك ما هو أكثر رحمة من التكرار وإيقاعه. فلا مفاجآت ولا حاجة للتأمل ولا رجاء أيضًا. وليس هناك ما يستدعي عناء الانتظار أو البحث أو مخاطرة الهرب. لكن ومع كل ما لحق بالرتابة من سوء السمعة، فإنها عادلة بلا شك، وبها قدر لا بأس به من المساواة. فكل بيت كغيره، وكل شارع يشبه الآخر، وأي شخص يمكن استبدال به غيره وأحيانًا بآلة أيضًا. وكل ركن في المدينة يصلح أن يكون بيتًا أو مكانًا للعمل أو العكس، وكل بناية يمكن هدمها ببساطة أو بناء غيرها، دون أن يشعر أحد بها حدث. وكل ذكرى من الطفولة مثلًا يمكن استبدالها، أو نسيانها، أو نقلها من نقطة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر، بنفس السلاسة، التي ينتقل بها الناس من بيت إلى غيره، ومن بلد إلى بلد، دون أن يشعروا أو يشعر أحد غيرهم بالأسى من أجلهم. والحقيقة أن هذا ليس حكرًا على لندن، فحين يتعلق الأمر بالقياسية واستنساخها، فكل المدن متشابهة، بدرجة أو بأخرى.

والمسألة ليس لها علاقة بالحداثة أو الحضارة كما يظن البعض، بل وعلى غير المتوقع بالقضاء والقدر. وهكذا يتطابق تصميم المدن مع جوهر الدين، أي التوحيد، توحيد النموذج. وكنت قد شاهدت فيلمًا تسجيليًّا أمريكيًّا

عن الديانة المصرية القديمة ورجح قناعتي بشدة، فالإله خنوم حين خلق الإنسان، خلق له المدن أيضًا ليسكن فيها، وصنعها جميعًا نسخة طبق الأصل من مدينة طيبة. ولا عجب فالإله خنوم كان له رأس خروف، وبالطبع كانت طباعه كخصال الخراف الوديعة التي لا يمكن فصلها عن أخلاق القطيع.

المهم، كان عليَّ أن أضع العنوان على جوجل للخرائط، فبعد عشرة أعوام من العمل والحياة في نفس الحي، مازلت أجد صعوبة في أن أجد طريقي، وحتى حين يتعلق الأمر بالأماكن التي أتردد عليها بشكل دوري، تظل الشوارع بالنسبة لي كمتاهة من المرايا. ومع الوقت، لم يتحسن الوضع، بل تدهور عامًا وراء آخر. حاولت مرات كثيرة، أن أثبت علامات في ذاكرتي، وأن أفرض معنى ما على أي عيب عرضي ولو ضئيل يمكنني تبينه في انتظام تلك الشبكات المتشابهة من الخطوط، والبيوت المستنسخة. أنجح عادة في البداية. لكن بعد يومين أو ثلاثة، يعود كل شيء أمامي ليشبه غيره، وسبب فشلي غالبا هو أني عجزت عن إلحاق أي علاقة شعورية بنقاط الارتكاز تلك. فلسبب ما ذاكرتي لا تعمل بمجرد التكرار، أو عبر رسم علاقات بين الأشياء. بل تعمل عادة عبر ربط الأشياء بانفعالي تجاهها.

وهذه قدرة قد فقدت كثيرًا منها مع الوقت. فبفعل التكرار، أصبح الفرح يشبه الارتياح، والغضب يشبه الملل، والرضا يصعب تمييزه عن الاستسلام، كما أن الحزن أصبح متطابقًا في الكثير من الأحيان مع اليأس، وكذلك

الحنين مع الندم. وهكذا كانت تختلط عليَّ أسماء الشوارع وأماكنها، وأجد نفسي عاجزًا عن تسمية مشاعري، وفصل الأحاسيس بعضها عن بعض.

السيدة (أ)، تسكن في أحد نزل المشردين، التابعة لإدارتي، وأتردد عليه لأغراض العمل بانتظام، مرتين أو ثلاثة كل أسبوع، وأعرف بشكل تقريبي أن التمشية إلى هناك ستأخذ حوالي عشر دقائق، لكن لا داعي لمحاولة تحديد الاتجاهات إلى هناك اعتمادًا على الذاكرة. فبمجرد خروجي من باب المكتب، وكالعادة، كان من الصعب أن أقرر إن كان عليَّ التوجه يسارًا أو يمينًا. والإنترنت كان بطيئًا، وتطبيق الخرائط عاندني هو الآخر لدقيقة أو أكثر. ولم ينتشلني من تلك المهانة الصغيرة سوى رنين هاتفي.

"ابقى عندك، أنا في الطريق، سأصل أمام مكتبكم بعد خمس دقائق، ودعنا نتمشى معًا للنزل" .

لا بيبي ولا كاتجينا إذًا، كان الصوت الآتي من الجهة الأخرى مفعمًا بالحيوية، وبفواصل قهقهات غير مبررة وطبيعية تمامًا، هو صوت كابودي. وأنا كنت مندهشًا، فمنذ أن عُين كابودي مديرًا لمرضى قسم العناية النفسية، منذ أربع سنوات، لم يحدث أن ترافقنا في زيارة منزلية. وحسب فهمي فإنه لا يشارك في العمل الميداني، كما نسميه، سوى في حالات الطوارئ أو الملفات الاستثنائية. والسيدة (أ) لا يوحي ملفها بأي حاجة لمعاملة خاصة.

بأي حال، كان الإعلان عن حضوره سببًا كافيًا للإثارة، فتلك واحدة

من المفاجآت غير الضارة، التي تحدث بين حين وآخر، وتثير بعض الفضول. فأنا ألتقي كايودي، بشكل دوري، في الاجتماعات الربع السنوية التي تضم اختصاصيين من أقسام الرعاية المختلفة، وكلانا يفضل الصمت في تلك المناسبات. وغالبًا ما نجلس على مقاعد متجاورة، بعيدًا عن الموظفين شديدي الحماس والذين يأخذون أنفسهم على محمل الجد أكثر من اللازم. فهؤلاء عادة ما يلفتون الانتباه إلى قلة حماس من يجلسون بجانبهم. يكتفي كايودي، في تلك الاجتماعات، بابتسامته عريضة، تكشف عن أسنانه البيضاء اللامعة من خلفها، وتبعث فيَّ شعورًا لا يمكن مقاومته بالألفة تجاهه. وحين يجد نفسه مضطرًا للحديث، أي عندما يهاجمه أحدهم أو يتهم قسمه بالتقصير، فإن له أسلوبًا فريدًا للتعامل مع تلك المواقف. فهو لا يحاول أن يدافع عن نفسه على الإطلاق، بل يذهب إلى تحويل أي تفصيلة صغيرة تم ذكرها، لمبرر لاستخلاص نظريات اجتماعية شاملة. وفي أحيان ينطلق بنبرة وعظية وبلكنته النيجيرية التي خففها طول إقامته في لندن في قول عدة أحكام عامة عن الحياة، والتي لا تبدو مقنعة في المجمل. لكن كل منها على حدة تحمل حكمة مدهشة من نوع خاص. وغير ذلك فإن كايودي يقضي معظم الوقت بتلك الاجتماعات في العبث بهاتفه، الذي يخفيه تحت الطاولة التي أمامه، ويمر بأصبعه على الشاشة، ويتصفح صورًا لبيوت شديدة الفخامة بحمامات سباحة. وأنا لطالما تحيرت في أمر تلك البيوت، فهل هو فعلًا عازم على شراء واحد منها، أم أنه يكتفي بالنظر إليها من باب الحسرة. وربما اليوم هو فرصتي لأسأله عن الأمر.

ظهر كايودي فجأة، وقفز تجاهي في خفة لم تبدُ متناسبة مع جسده الفارع وكرشة الذي ترجرج أمامه، وضمني بذراع واحدة، بينما كان يربت على كتفي بيده الأخرى، بحميمية، وكأننا عدنا توًّا من الحرب.

"مرحبًا يا رجلي المفضل"

كانت هذه طريقته في التحية التي ينادي بها جميع من يعرفهم، ففقدت معناها تمامًا.

"ما الذي حدث؟ أين كاتجينا وبيبسي؟"

قبض على معصمي بيده وجذبني في اتجاهه وهو مستمر في السير إلى الأمام.

"تعالَ معي وسأخبرك بكل شيء في الطريق".

استمر في السير قدمًا، وبدأ في رواية ما حدث، دون أن ينظر في وجهي.

"تعاركتا مع بعضهما هذا الصباح، وتوقفتا عن العمل. وحين حاولت تهدئة الأمور بينهما، انقلبتا ضدي. بيبسي صرخت في وجهي بأعجب شيء سمعته منذ كنت في المدرسة الابتدائية. قالت لي إنني أنصف كاتجينا دائمًا عليها، كما أن أجدادي باعوا جدتها إلى البيض، هكذا نحن الأفارقة بلا شرف، ونبيع بني جلدتها. وأنا لم أتمالك نفسي من الضحك، ولم يكن هناك ما يمكن قوله للرد طبعًا. أما كاتجينا فاتهمتني بالأمر نفسه معكوسًا طبعًا، قالت أنتم جميعا تقفون في صف بعض. وأنا سألتها عما تعنيه بـ"أنتم"،

وردت بأنني أفهم جيدًا ما تعنيه، ولا داعي لتصنع البراءة. وأنا لم أتمالك نفسي وقلت لها الأمر بكل صراحة: "أنتِ لست بيضاء يا حلوتي، أنت سوداء، كل من يعمل في وظيفة مثل وظيفتنا هو أسود، عليكِ أنت أن تتوقفي عن الإنكار".

بدأت في الضحك، وأنا أتصور وجه كاتجينا المتقع وهي تسمع ما قاله لها كايودي.

"قلت لها إنها سوداء فعلًا؟ هي لن تحب هذا بالتأكيد، يا كايودي".

هز كايودي رأسه بالنفي، فلم أفهم على نحو صحيح.

"هي غضبت من مناداتي لها بـ"حلوتي" أكثر من أي شيء آخر، وقالت إنها ستقدم شكوى رسمية للإدارة ضدي، لأنني خاطبتها بطريقة مهينة وذكورية، حسب ما قالت. أما حقيقة أنها سوداء فلم تستطع أن تجادلني فيها".

فهمت أنه على وشك استخلاص واحدة من نظرياته المسلية، وانخرطت معه في حوار في غاية الغرائبية.

"لكنها ليست سوداء يا كايودي. هي شقراء جدًا، وأنت تعرف ذلك".

"لا هي سوداء، وكلنا هنا سود".

"ليس الجميع، عندك باتريك مثلًا، أبيض وبشعر أحمر".

"أيرلندي، إذًا أسود".

"وآلن، إنجليزي وأبيض؟"

"شيوعي، يجعله هذا أسود أيضًا".

"طيب، وماذا عن دي؟ لا هي أيرلندية ولا شيوعية".

"مثلية، وتربت في ملجأ، يعني سوداء مرتين".

"طيب وأنا؟"

"مسلم، يعني أسود".

"لكنني لست مسلمًا يا كايودي. وأنت تعرف هذا جيدًا، أنا من عائلة مسيحية".

"لا يهم، شكلك مسلم، وكل مسلم أسود".

"وهل للمسلمين شكل؟"

"طبعًا، على الأقل هنا، كل غير البيض مسلمون حتمًا".

"يعني الصينيون مسلمون؟"

"لا الصينيون سود".

"يعني ممكن تكون أسود، ولا تكون مسلمًا".

"آه، فقط لو كنت صينيًا".

"لكن معنى كلامك، أنه لا يوجد أحد أبيض على الإطلاق".

"هذا صحيح، البيض الحقيقيون نادرون جدًّا، ويمكن أن تعيش حياتك كلها في تلك المدينة ولا تلمح سوى واحد أو اثنين منهم فقط، وربما لن نلاحظهم، إلا لو كان لديك قوة ملاحظة شديدة. لكن لا تنسَ أن السود ليسوا مرتبة واحدة، فهناك سود سود، وسود من شرق أوروبا، وسود صينيون، وسود سود جدًّا، وسود نصف نصف، وسود مسلمون، ومسلمون سود، وسود باختيارهم، أو بمحض الصدفة، أو لسوء الحظ، وسود متنكرون، وسود في الخفاء، وغيرهم في العلن، وسود بنصف الوقت، وسود بدوام كامل، وبعض السود بيض من الداخل، مثل جوزة الهند، وبعضهم بيض من الخارج مثل، لا أعرف. باختصار الأمر معقد جدًّا".

لم يكن كايودي يمزح، أو حتى يستخدم كلمتي أبيض وأسود بوصفهما كنايات لمعانٍ اجتماعية، بل بدا لي وكأنه مقتنع حرفيًّا بما يقوله، لدرجة أنه أشار إلى أن بشرة كاتجينا قد بدأت في اكتساب درجات أغمق من اللون عامًا بعد آخر. *وقد كان مقتنعًا بأنه من السهل جدًّا أن يتحول الأبيض إلى الأسود بالتدريج، لكن الأسود من شبه المستحيل أن ينقلب إلى أبيض. فقط وكما قال، يمكننا، أنا وهو، ومن على شاكلتنا أن نصبح بِيضًا حين نعود للبلاد التي أتينا منها. وفجأة، ودون أن أسأله، جاء كايودي على سيرة حمامات السباحة، فأي شخص يمتلك حمام سباحة في بيته هو أبيض بلا شك. وهو آجلًا أم عاجلًا سيكون أبيض في نيجيريا، حين يشتري*

البيت الذي سيتقاعد فيه هناك، وهذا يجعله عضوًا في فئة لم يذكرها في قائمته من الألوان: بيض المعاش السود.

ويبدو أن كايودي استغرق بالكامل في سرد نظريته المعقدة، حتى أننا وصلنا إلى نزل المشردين، دون أن يخبرني بأنني من سيتولى مهمة الترجمة. فحين اتصل قسم الرعاية النفسية بالسيدة (أ) لتحديد موعد لزيارتها، بالاستعانة بمترجم تركي، أصرت على أنها لا تفهم التركية. وحين أعادوا المحاولة، بمساعدة مترجم كردي، أخبرتهم أن اللغة الوحيدة التي تتحدث بها هي العربية. وهم غير واثقين فيما قالته، لكن ليس أمامنا سوى المحاولة.

وصلنا إلى النزل قبل موعدنا بخمس دقائق. وكان من المفترض أن يكون هذا وقتًا كافيًا، لتوقيع أسمائنا في دفتر الزيارة. لكن موظف الأمن لم يكن في غرفته الزجاجية الصغيرة في المدخل، وبابها كان موصدًا. لم تدم حيرتنا سوى ثوانٍ معدودة، وبعدها سمعنا الرجل ينادينا، ويطلب منا الدخول إلى المبنى، *فلقد ضغط الزر وفتح الباب لندخل. لم نستطع أن نتبين من أين يأتي صوته، لكنه أخبرنا أنه في غرفة تحكم التدفئة المركزية، حيث يوجد عطب في الترموستات ودرجة الحرارة مرتفعة بشكل لا يحتمل في المبنى. إنه فصل الصيف ويفترض فصل التدفئة المركزية. وهو يحاول إصلاح الأمر.*

بمجرد أن انفتح الباب، ضربتنا موجة من الصهد. وفي الممر الطويل الذي تتراص فيه عشرات من الغرف على جانبيه، كان هناك الكثير من

النزلاء واقفين أمام غرفهم بملابسهم الداخلية. عدد من الصبيان نصف العراة كانوا نائمين على بلاط الأرضية لتلطيف درجة الحرارة، وطفلان أصغر سنًّا كانا يبكيان بصوت مرتفع فيما كانت تصرخ فيهما أمهما ليخرسا. نظرت في واحدة من الغرف المفتوحة، وكان في داخلها امرأه حامل تقف على كرسي، وتحاول حشر رأسها في نافذة الغرفة المرتفعة لاستنشاق بعض الهواء. لمح كايودي تعبير وجهي، وهز رأسه في أسى:

"مسكينة، لن تنجح، كل تلك الشبابيك مغطاة بقضبان حديدية من الخارج لتمنع الانتحار".

سمعنا بعدها صوت المرأة وهي تصرخ بكلمات بلغة غير مفهومة، تبعها عويل طويل.

كان علينا الهبوط بضع درجات في نهاية الممر للوصول إلى القبو الذي يضم بضع غرف، تسكن السيدة (أ) في واحدة منها. ووجدنا هناك مراهقين جالسين يتهامسان على الدرجة الأخيرة. وحين مررنا بهما، رمقانا بنظرات عدائية بعض الشيء وظلا يتتبعاننا بعيونهم حتى وصلنا إلى الغرفة، ووقفنا أمام الباب. وحينها صرخ واحد منهما:

"خلصونا من هذه المرأة المختلة، تنتحب طوال الليل ولا نستطيع النوم".

طرق كايودي الباب، وتجاهل المراهقين تمامًا. وتراجع خطوتين حتى

أكون في المقدمة حين تفتح المرأة الباب. ضربتنا رائحة عفنة بمجرد أن فتحت المرأة لنا. كانت الغرفة مرتبة ونظيفة إلى حد معقول، لكن شباك الغرفة الوحيد كان مغلقًا. كانت المرأة ترتدي طبقات من ملابسها الشتوية، بالإضافة إلى إيشارب، بينما كان يتصبب وجهها بقطرات من العرق، يمكن سماع صوتها وهي ترتطم بأرضية الغرفة من فرط غزارتها.

للحظة تمنيت أن يتضح أن المرأة لا تتحدث العربية كما ادعت ونعود على أعقابنا. فالغرفة كانت مكتومة، وينطلق من إحدى زواياها صوت ضوضاء عالية واهتزازات ميكانيكية، كأن هناك موتورًا ضخمًا خلف الحائط. ظننت أنني على وشك أن أفقد الوعي من الاختناق، لكن وجه المرأة الذي كان متكدرًا حين فتحت الباب، اعتلته مسحة مفاجئة من الحياة بمجرد أن حييتها بالعربية. وردت بخليط من العربية المكسرة، بلهجة بدت لي عراقية، وبضع الكلمات الإنجليزية. وطلبت منا الدخول، فلقد كانت في انتظارنا.

لم يكن هناك سوى كرسي واحد في الغرفة، فطلبت منها أن تجلس على طرف السرير، وقدمت الكرسي لكايودي، لأنه من سيقوم بالعمل الورقي. وأخبرتها بأنني سأكتفي بالوقوف والاستناد إلى الحائط. وقبل أن أبدأ في توضيح الغرض من زيارتنا، كانت المرأة قد مرت بنظرها على كايودي من أعلى إلى أسفل باشمئزاز، ونظرت لي في غضب:

"هدا العبد، إيش ده يسوي هنا؟"

أصابتني عبارة المرأة الوقحة، ببعض الأمل في أن لقاءنا سينتهي سريعًا، وسأنجو من الجحيم الذي كنا نتلظى داخله. وأخبرتها بحسم بأننا لا نقبل مثل تلك اللغة، وأن عليها الاعتذار أو سيكون الميعاد لاغيًا في الحال. ولم يكن من المرأة سوى أن بدأت في الزعيق، والتلويح في وجه كايودي. وطلب هو مني ترجمة ما يحدث، ولم أشأ أن أخبره بأنها وصفته بالعبد، لكنني أخبرته بمضمون كلامها، وخففت وقعه بقدر المستطاع، فهي تريد موظفًا أبيض للنظر في حالتها، فهؤلاء فقط هم من يستطيعون أن يفعلوا شيئًا لمساعدتها، وحسم انتظارها الطويل. وختمت ترجمتي بأن الزيارة يبدو أنها قد انتهت، فهي ترفض المشاركة في الاختبار المفترض أن يقوم به هو. وهممت بالاتجاه نحو الباب، لكن كايودي أمسك بذراعي، ومنعني بإلحاح من الخروج:

"قليلًا من الصبر، أخبرها أنني مدير القسم، ولا يوجد من هو أعلى مني فيه، وأنا هنا لمساعدتها".

رفضت الترجمة في البداية، لكنه أصر، وقضى عشر دقائق في محايلة المرأة، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، ضايقتني أكثر من أي شيء آخر. وبدا أن لقاءنا سيستمر لأطول مما توقعت.

أخرج كايودي اللاب توب من حقيبته، وبدأ في شرح الغرض من الأسئلة التي سيلقيها على المرأة، فالاختبار سيحتاج عشرين دقيقة لا أكثر، وسيحتوي على عدد من الأحاجي السهلة التي ستحدد إجابتها مدى قدرتها

على التذكر والتركيز وربط المعلومات بعضها مع بعض وأشياء أخرى تتعلق بإمكاناتها الذهنية، وبالتالي تحديد قدرتها على المعيشة بمفردها. وبذلك يمكن تأهيلها للانتقال لمحل سكن دائم، ومستقر في المستقبل القريب. وطمأنها كايودي بأنه ليس هناك داعٍ للقلق، فهي تبدو في أفضل حال بالنسبة له، والاختبار لا يتعدى كونه روتينًا لا مفر من إجرائه. كل ما عليها عمله هو محاولة الإجابة بشكل صحيح، قدر الإمكان.

لم يكن أمر الاختبار بالسهولة التي تصورها كايودي. فالمرأة العجوز كانت تفهم عربيتي بصعوبة، وكانت لكنتها شديدة الصعوبة عليَّ أيضًا. فلغتها الأم التي ترفض الحديث بها تصر على التسرب من تحت لسانها. وتطبق على مخارج الحروف سواء العربية والإنجليزية، فتبدو وكأن لها روح لغة أخرى تمامًا. وبحكم خبرة طويلة لي مع اللكنات الكثيرة التي قابلت أصحابها في تلك الوظيفة، فلديَّ طرقي في التنقيب بين طبقات اللغات المتراكبة في كل لكنة، والتفتيش في أحافير الماضي المدفونة تحتها. وغالبًا ما نجحت في الوصول إلى الصوت الصحيح، وفي تنقيته من تشوهات ذاكرة لغته الأم التي فشل المتحدث في محوها وما زالت تثقل لسانه وتعذب قلبه. فكل لكنة صادفتها بدت لي وكأنها حاضر مغلف برواسب الماضي، وكلما نسي المرء تطهرت لكنته وأضحت مخارجها أكثر نقاء وثقة بنفسها. ففيما يظهر أن تعلم لغة جديدة هو في الحقيقة عمل مرهون بالنسيان وجحود القلب تجاه الذكرى، ولا علاقة له بالحفظ كما يظن معظم الناس. وعلى ما يبدو فإن ماضي السيدة (أ) أثقل من حاضرها بكثير، ولا أدل على ذلك من لكنتها.

كانت تصيبها وصلة من الضحك، في كل مرة ألقي عليها واحدًا من أسئلة كايودي. فمن فرط بداهتها، كانت تبعث على السخرية، والحيرة أيضًا، كأي شيء بديهي آخر. وأدارت وجهها أكثر من مرة خجلًا ودفنته بين كفيها وهي تداري وهجًا طفوليًا تألق في عينيها مع كل سؤال، وراقب كايودي كل ذلك بابتسامة مطمئنة على وجهه وهي يدون إجاباتها المبعثرة التي حاولت ترجمتها. كان السؤال الأول عن الوقت، وهي لم ترد سوى بأنها من الجبل وأبناء الجبل لا يلبسون الساعات، لكنها تستطيع أن تخبرنا بأننا قبل منتصف النهار بقليل. وحين أصر كايودي على ساعة محددة، ردت هي غير مبالية بأنها إما الثالثة أو الخامسة. أما تاريخ اليوم، فهي لم تعد تحسب الأيام، منذ غادرت السجن، وكل الأيام تبدو متشابهة، ومن الأفضل لها أن تظل كذلك، كما قالت. أما عن اليوم فهو الجمعة فجارتها تمر عليها لاصطحابها معها للمسجد كل جمعة، وهي ترفض، ولا تيأس الجارة، فقد قرعت بابها هذا الصباح لتسألها إن كانت تود مرافقتها للصلاة لاحقًا. وبفضل ذلك، عرفت السيدة (أ) الإجابة الصحيحة. لكن كايودي لم يكن راضيًا، فهذه كانت الإجابة الصحيحة بالفعل لكن للسؤال الخطأ. فلقد كان يسأل عن تاريخ اليوم، لا أي يوم في الأسبوع.

حاولت من جانبي أن أكون أقل إخلاصًا في ترجمتي، فبدلًا من ترجمة السؤال "من هو رئيس الوزراء"، قلت "من هي رئيسة الحكومة"، فقد ظننت أن هذا سيسهل لها الفهم، وردت هي بعد حملقة طويلة في وجهينا،

قبل أن تهتف بنبرة منتصرة: "الملكة". وعندما لاحظت علامات خيبة الأمل في عيوننا، تمتمت وكأنها تدفع تهمة عن نفسها: "أنا لا أفهم في السياسة، أنا أريد شقة فقط". تابع كايودي عمله بمنتهى الجدية، بالرغم من أن سواقي من العرق كانت تتصبب من جبينه. بجانب أن المرأة قد رفضت طلبه أكثر من مرة لفتح النافذة، إلا أن ابتسامة الرضا على وجهه لم تفارقه. ولم يبدُ على قسماته أي امتعاض.

طلب كايودي من السيدة (أ) أن تسمي حيوانات كان يخرج صورها من حقيبته بحركات استعراضية، وكأنه ساحر يعرض حيلة أمام أطفال مشدوهين. وكان كلاهما مستمتعًا باللعبة.

وعلا وجه المرأة الكثير من الدهشة وهي تدقق في صورة وحيد القرن وبعدها الكانجرو، وهزت كتفيها في استسلام، وهي تخبرني بأنها رأت تلك الحيوانات في التلفزيون، لكن لا تعرف أسماءها لا بالعربية ولا بالإنجليزية، ولا بأي لغة أخرى. وأمام إصرار كايودي على الحصول على إجابة، أي إجابة، وضعت أصبعها على صورة وحيد القرن: وقالت وهي تضحك "أسد"، وقلبت الصور بين يديها، وأخرجت صورة الكانجرو، فحصتها قليلًا، ثم التفتت إلى رفيقي وأعطته الإجابة بالإنجليزية، لأول مرة، وبنبرة تملؤها الثقة: "دونكي".

وصلنا مع صورة الكانجرو لنهاية الأسئلة، وطلب كايودي بضع دقائق لإدخال البيانات على حاسوبه، قبل أن ننهي الزيارة، لكن العملية

استغرقت أكثر من هذا، فالإنترنت عانده لبعض الوقت. ولم يكن أمامي سوى التظاهر بالاهتمام بما كانت المرأة تخبرني به عن ماضيها، فلقد ولدت في جنوب تركيا، وانتقلت في سن السادسة عشرة إلى العراق مع زوجها، فهو نصف عربي. وشهدت مذبحتين على جانبي الحدود، وحكت بضع تفاصيل عن واحدة منهما لا أذكرها، فالحرارة كانت قد أصابتني بالدوار، ولم أعد قادرًا على التركيز بشكل كامل. إلا أنني كنت مهتمًا بسؤالها عن لغتها الأم. ورفضت الإجابة في البداية، لكن وبعد إلحاح من جانبي، أخبرتني بأن أمها أرضعتها الكرمانجية، منذ ولادتها. لكن ومع انتقالها إلى الجهة الأخرى من الحدود، كان عليها أن تتعلم لغة البلاد وأن تتكلمها. وكان الحرمان من لغتها التي شربت لبنها، واستبدالها بلغة أخرى، قاسيًا على روحها. قالت لي إن الأرواح تفهم لغة واحدة، هي تلك التي نتعلمها في الصغر، أما غير هذه فتدركها عقولنا فقط، ولا تتعدى الأذن إلى القلب. سألتها:

"لماذا ترفضين إذًا التحدث بالكردية؟"

أجابت:

"هذا شيء آخر. لا تظن أني أتبرأ من أصلي أو الماضي. ليس هناك شيء مفرح في ماضينا، لكنه في الأول والأخير ماضينا، ونمتلكه كما يمتلكنا. أنت لا تستطيع أن تكون صادقًا هنا وتنجو. لتتجنب الموت عليك أن تكذب، أو على الأقل لا تفتح قلبك على مصراعيه للغرباء. وأنت تفهم، حين يفتح أحدهم فاهًا أمامك في الغربة، بتلك اللغة التي تفتقدها وتشتهي وقعها،

تنفك عقدة القلب وتسكب روحك أمامه. لكن إن أردت أن تكذب فلا أسهل من أن تفعل ذلك بلسان أجنبي. لذلك أحدثك بالعربية لأكذب. أليس الحديث بلغة غريبة كذب تقترفه الروح بأي حال".

كنت على وشك أن أسألها عن سر تلك البلاغة أو الحكمة التي تمتلكها، لكن كايودي قاطعنا، فقد يئس من معاندة الإنترنت له، وانتفض فجأة من مقعده، وأعلن عن انتهاء اللقاء. قفزت المرأة من على طرف السرير، وهرولت إلى الباب، وأمسكت بذراعه، ونظرت إليه في توسل:

"أخبرني ماذا سيحدث لي! أرجوك، لا أستطيع الانتظار أكثر من هذا".

حاول كايودي أن يخلص ذراعه من بين يديها، لكن قبضتها كانت أقوى بكثير مما توحي به هيئتها النحيلة ووجها الضامر.

"لن أدعك تذهب، قبل أن تخبرني الآن إن كنت سأخرج من هنا أم لا".

ترجمت لكايودي ما قالته، لكنها أزاحتني بذراعها، وجذبت كايودي أقرب إليها، وحملقت بعينيها في عينيه، وقررت أن تتولى أمر الحديث بنفسها، وسألته بإنجليزيتها الثقيلة:

"هوم أور نو هوم؟"

وظهر وكأن كايودي وجد فرصته للانتقام أخيرًا، فقد نجح في تحرير ذراعه من بين يديها، وبينما كان يدير مقبض الباب، ويخطو نصف خطوة خارجه، اختفت الابتسامة الطويلة من على وجهه، وقال لها بكثير من الحسم:

"نو هوم".

لم أكن مهتمًا بتفحص ردة فعلها، فربما كانت الصدمة أكثر رأفة من الانتظار على أمل كاذب. ودون أن أنظر إلى الخلف، تتبعت كايودي الذي كان يهرول إلى خارج الغرفة، متجهًا إلى درجات السلم، بخطوات واسعة. وفي الممر كان هناك عدد أكبر من الأطفال المكومين على البلاط، ولم نتمكن من رؤية أيٍّ من البالغين الذين صادفناهم في طريقنا داخل المبنى وربما لم نلاحظهم بسبب هرولتنا. وكان موظف الأمن لا زال مختفيًا، ولم نشغل أنفسنا بالبحث عنه. دفع كايودي الباب بنفسه، وبمجرد أن خطونا إلى الخارج، لسعتنا خفة النسيم، أفاقتنا في لحظتها من الغثيان الذي تملكنا في الداخل.

"لماذا فعلت هذا؟ هل كنت تنتقم من إهانتها؟ ألم يكن من الأفضل أن نغادر من البداية؟"

سألت كايودي غاضبا، وأجابني هو بابتسامته المعتادة على وجهه:

"لم يكن ممكنًا أن نغادر، لدينا عمل ويجب أن نقوم به. هل تظن أني لم أفهم ما قالته. هي وصفتني بالعبد، أنا من نيجيريا يا صديقي، وأعرف ما تعنيه كلمه عبد بالعربية، وعبدالله وعبد الرحمن وغيره. لكن أنا مسيحي أيضًا، والمسيحي يغفر الإهانة".

حاولت إنقاذ الموقف، والتقليل من فداحة الإهانة. لكن صوتي المهزوز، كشف كذبي.

"أنت فهمت؟ لكن كلمة عبد في بعض اللهجات العربية تعني أسود فقط، دون أي دلالات أخرى. والمرأة غير متمكنة من اللغة بأي حال".

كان واضحًا أن محاولاتي لم تنجح، فالابتسامة غابت عن وجه كايودي.

" وهل هذا عذر؟! أن تكون كلمة عبد مطابقة لكلمة أسود؟! أليس هذا معناه أن اللغة ممسوسة بالكراهية؟ لكن ليس أمامي خيار، أنا أسود. وكونك أسود يعني إما أن تكون مسيحيًا أو أن تذهب إلى السجن. المسيحية فريدة جدًا. تجعل المهانة فضلًا، واحتمالها ورعًا. وإلا كيف تفسر أن نصف إفريقيا تحولت إلى المسيحية في أقل من قرن بمجرد أن وصل الرجل الأبيض هناك. حدث هذا فعلًا، وليس لأنها فُرِضت علينا، لكن لأننا احتجنا طريقة لاحتمال المهانة، بل وإضفاء معنى نبيل عليها".

لكنك قلت منذ أقل من ساعة أن كل مسلم هو أسود. فهل كل مسلم هو مسيحي إذًا؟

"هذا صحيح أيضًا، فكل مسلم هو مسيحي أسود، ضل الطريق بشكل أو بآخر، أو للدقة كل مسيحي هو مسلم أسود نجح في تحمل عار وجوده".

كان كايودي على وشك أن يبدأ في شرح واحدة من نظرياته الاجتماعية، التي تفصل بين المصطلحات ومعانيها المتفق عليها، ومن ثم منحها معاني جديدة تكشف عما يراه جوهر علاقات الأشياء بعضها مع بعض، لا أسماءها

المجردة. وأنا لم أكن مهتمًا، بالاستماع لاسترساله المعتاد، وقررت مقاطعته، والعودة إلى موضوعنا الأصلي.

"لماذا أخبرتها أنه لا أمل لها؟"

"لأن هذه هي الحقيقة. نتائجها في الاختبار متدنية إلى أقصى حد، لديها ذاكرة سمكة. وتفتقد للحد الأدنى من الملكات الإدراكية اللازمة للاستيعاب البسيط للزمن ومحيطها المادي".

"هذا ليس صحيحًا على الإطلاق يا كايودي. وأنت تعرف ذلك. المرأة لديها ذاكرة حادة وثاقبة، وعندها من الحكمة والبلاغة أكثر من كلينا معًا. الأمر فقط أن ذلك الاختبار صمم لأناس بعينهم. وهي من الجبال، وناس الجبال لا يلبسون الساعات، ولا يعرفون الكانجرو".

"أنا أفهم ما تقوله تمامًا. لكن وظيفتي للأسف ليست التفلسف، وربما كنت سأبلي حسنًا لو كانت الفلسفة هي ما عليَّ القيام به. مهمتي ببساطة أن أجري الاختبار المعتمد من هيئة الصحة الوطنية، وكون الاختبار غير مناسب أو خاطئ، فهذا لن يغير شيئًا من الحقيقة".

كانت أعصابي بدأت تفلت، وارتفع صوتي قليلًا:

"أية حقيقة التي تتكلم عنها!"

"الحقيقة هي ما تقوله نتائج الاختبار، وما تعتمده هيئة الصحة الوطنية،

ونسخ التقارير الموقعة من طبيب مؤهل، والمخزنة بطريقة صحيحة على السيستم. وهي ما ستحدد أهليتها للحصول على سكن مستقل أم لا. وأنت لا تحتاج أن تخبرني بأن الحقيقة نسبية، وأن الحقيقة التي يعرفها ناس الجبال غير الحقيقة التي نعرفها أنا وأنت. أفهم هذا طبعًا. لكن نحن هنا في لندن، ولسنا في الجبال، ولدينا حقيقة واحدة. وهذا ليس وضعًا مثاليًا بالطبع، لكن يجب على كل مجتمع أن يجد مقياسًا للأشياء، وبذلك نستطيع أن نفصل بين الجيد والسيئ المقبول والمرفوض، الأبيض والأسود، وهكذا. يجب أن يكون هناك مقياس متفق، ولو كان خاطئًا".

"لكن هل أنت مقتنع حقًا أن المرأة فاقدة للحد الأدنى من الملكات الذهنية؟"

"ما أظنه أنا، أو أنت، ليس مهمًا، ويجب أن يظل غير مهم. فلو كان الأمر متروكًا لرأيي الشخصي، فبعد الإهانة التي ألحقتها بي بكل وقاحة، لكنت ألقيت بها في الشارع، حتى تموت من الجوع. هذه الاختبارات كما هي غبية، فإنها محايدة وليست شخصية إلى أقصى حد، وبشكل ما تنقذنا من قسوة البشر. صدقني السيستم يحمينا من أنفسنا".

كان لدي الكثير لأقوله لكايودي، كان يمكن أن أنفجر فيه وأخبره أن كل نظرياته مجرد هذي، أو أن الاختبارات هي أكثر اختراعات البشرية شرًا، كل الاختبارات، وليس الاختبارات التي يجريها فقط. فلا شيء يعلم الناس القسوة أكثر منها. ويكفي أن نتذكر تلك البلادة على وجوه مدرسي

الصفوف الابتدائية وهم يوزعون شهادات الرسوب على تلك الأرواح الصغيرة والهشة، دون ذرة من تعاطف أو شفقة، أو أن نستعيد مشهد تلامذتهم وهم يتقافزون في بهجة نجاحهم، آخر العام، دون أن يلاحظوا انكسار رفاقهم الذين لم ينالوا نصيبهم من التوفيق. والأقسى من هذا هو تلك القناعة التي تزرع في العقول سنة دراسية بعد أخرى، بأن الناس درجات، أو أن الناس هم درجاتهم، وأن الحياة اختبار واحد طويل، والأعمار سباق لا يهدأ لتجميع النقاط وعلامات التفوق، وأن هؤلاء الرابحين يجدر بهم أن يشعروا فقط بالفخر، أما الفاشلون فليس أمامهم سوى احتقار أنفسهم، أو أن يحسوا بالذنب في أفضل الأحوال.

وقول هذا أو غيره لكايودي كان ضروريًا بالتأكيد، حتى بالرغم من يقين كلينا بأن لا شيء في أيدينا لتغيير السيستم. فهناك فرق بالطبع ـ وإن كان علينا الاعتراف بأنه فرق ضئيل ـ بين أن تكون راضيًا عن الوضع المزري للعالم ومقتنعًا به، وبين أن تعيش فيه كما هو لكن مع بعض التبرم من قسوته.

ولكنني في النهاية لم أقل شيئًا، فقد وصلنا حينها إلى مفترق طرق، وكان على كل واحد منا أن يمضي في مساره. فكايودي كان عليه أن يتجه يسارًا إلى الشارع الرئيسي ليتناول وجبة الغداء في أحد مطاعمه التركية الكثيرة. والحقيقة هو دعاني لمصاحبته واستكمال حديثنا، إلا أنني كنت قد تركت علبة الطعام التي جهزتها في اليوم السابق، في ثلاجة المكتب، وفضلتُ أن

أعود لتناولها. لم يكن هناك شيء مغرٍ في سلطة التونة التي كانت في انتظاري، لكن وجبة في مطعم رخيص لن تتكلف أقل من عشرة إسترليني. وهذا كان واحدًا من المواقف التي يظهر فيها للمرء كيف يمكن للتفاصيل الصغيرة والأعباء التافهة للحياة، أن تمنعه من قول أشياء عظيمة جدًّا، ولنكون أكثر دقة كيف لمئة وخمسين جرامًا من السمك المعلب أن تكون ثمنًا لإنصاف شخص كان على وشك أن يفقد حياته بعد قليل.

الفصل الرابع

قبل اليوم الذي خرج فيه جدي من بيته ولم يعد أبدًا، لم تعرف جدتي، بديعة، الحكايات. وتقول هي عن نفسها قبلها كنت خجولة وصامتة كحجر. لكن حين طالت الغيبة، ولم يعد ممكن لها البكاء أكثر من هذا، بدأت في نسج القصص، واحدة وراء الأخرى، كانت تدور على بيوت القرية وتطرق على الأبواب، لتدلل على حكاويها. تلك كانت الطريقة الوحيدة لتعول أربع بنات بلا أب. في كل بيت كانت تستلقط شيئًا وهي تحكي: رغيف خبز من هنا، ولقمة مغموسة ببعض الزفر من هناك، بينما النساء متحلقات حولها في دهشة. وفي أحيان كان يجود عليها أهل البيت بكوب من الشاي أو نفس من الدخان. وكان لقصصها سوق رائج، فمن غيرها من النساء أو حتى الرجال في المحافظة كلها كان يرى ما تراه. فكل بضعة أسابيع، كان يصل

أنفار من نقطة الشرطة، وفي بعض أوقات من المديرية نفسها، ويطرقون باب الجدة، ويسحبونها معهم إلى المركز. وهناك كانوا يعرضون عليها جثثًا لرجال موتى، أو ما تبقى منهم، ويقلبون الأجساد أمامها عارية مرتين أو أكثر. ويأمرونها أن تحملق فيها، لتخبرهم إن كانت واحدة منها لرجلها أم لا. وحين كانت تجاوب بالنفي، كانوا يطلبون منها أن ترفع يديها من فوق عينيها، وأن تطيل النظر، فالموت يغير من هيئة الإنسان. وإن قالت لا ثانية، كانوا يدعونها ترجع إلى بيتها وبناتها.

في كل مرة كانت تعود بقصة جديدة أو اثنتين، مرة عن الرجل الذي خنقه إخوته ورموه في النهر طمعًا في ميراثه، ومرة عن الزوجة التي انتقمت من خيانة زوجها وأشعلت به النار، ولم يجدوا منه سوى رأسه مسلوخة ومدفونة في الحقل، وأحيانًا كثيرة قصص عن الثأر والشرف. وحين يكون مزاجها حسنًا، كانت تروي حكايات أكثر براءة، كأن يغرق الرجل في اليم بعد أن تندهه النداهة أو يغويه الجن بأي وسيلة أخرى. وكان الجيران يتلهفون إلى عودتها، فلسبب ما يُفضل الناس قصص الموتى على سير الأحياء، ولطالما لين الموت قلوبهم تجاه آخرين لم يعرفوهم أبدًا، وملأها بدفء مخلوط بالرهبة. وكانت تلك الحكايات من وحي خيالها بالكامل، ومليئة بالمبالغات صعبة التصديق. وكان الجيران يستمتعون بكل ما لا يمكن تصديقه، ويميلون إلى الغرائب، زهدًا في المألوف الذي يعرفونه. وبفضل فراسة من نوع خاص، ظنتها في نفسها، وصدق بها كثير من الناس، دعاها أهالي القرى المجاورة،

في بعض المرات، لتتفرس في وجوه الراحلين، حال كان هناك شكوك حول ملابسات وفاتهم. وهي لم تتأخر أبدًا. فالجدة كان لديها قناعة بديهية جدًّا، وإن كانت غريبة بعض الشيء. وهي أن المرء لا يتم موته، وتستقر روحه سوى بعد أن تظهر جثته، وتبرد نار أحبته على أسباب موته. ولذا على كل جثمان علامات، تدل على سر صاحبها وتكشفه لمن يحسن قراءتها. وهي ملكة لا يتقنها المرء سوى بالاعتياد وطول التمرس، ولم يكن هناك من هو أكثر خبرة منها في أمور الموت بالطبع. لكن، وفي كل هذا، فإن الجدة كانت تصل في نهاية كل قصة إلى عبرة مألوفة لا تحمل سوى قدر يسير من الحكمة، وكانت تعيدها بلا كلل. ولطالما أغاظ ذلك جيرانها، وأصابهم بخيبة الأمل، في كل مرة. فكيف لكل تلك القصص المثيرة، والأحداث الغريبة، أن تنتهي بهم إلى عبارة بليدة، مثل هذه: إكرام الميت دفنه، حقًّا؟ وكأنه ليس هناك ما يمكن للمرء أن يتعلمه أكثر ممن سبقوه، وكأن كل ما لا يمكن تصديقه ينتهي مدجنًا وعاديًّا ومعتادًا إلى حد الملل.

"*إكرام الميت دفنه، يا أفاضل*". هكذا كانت تقول وهي تغادر عائدة إلى بيتها.

كانت زيارة بديعة، جدتي، لي في الحلم هو ما أقنعني بتحمل مسؤولية الأمر، حتى بعد أن أبرأني منه أيمن. ففي تلك الليلة، وبعد أن انتظرت مكالمة منه بخصوص التوكيل وموضوع الجنازة، وطال انتظاري وكاد أن يغالبني النعاس، قررت أن أتصل به. حاولت أكثر من مرة، وكان الجرس

يرن بضع رنات، وبعدها يغلق الخط. أصابني بعض التوتر، وأرسلت له رسالة أطلب منه أن يطمئنني عليه. وكنت راضيًا جدًّا، لأنني تخلصت من مسؤولية الجنازة، ولو ليوم واحد على الأقل، وساعدني ذلك على الاسترخاء والشعور بالنعاس. وبدأت في التجهز للدخول للسرير. وحوالي منتصف الليل، رن هاتفي أخيرًا، وكان اسم أيمن على الشاشة.

لم يكن من الصعب تصور أن الأمور لم تسر بحسب الخطة، فربما وعود السفارة بتخليص إجراءات التوكيل في اليوم نفسه كانت متفائلة أكثر من اللازم، والموضوع ربما يتطلب عدة أيام، أو أن الوالدين غيرا رأيهما في آخر لحظة، وقررا إحضار الجثمان إلى القاهرة لدفنه في النهاية. لكن نبرة الاضطراب التي سمعتها في صوت أيمن كانت تنبئ بأسوأ من هذا بكثير.

كان أيمن ينهج وصوته يتقطع، وفي البداية ظننته في الشارع ويمد في خطاه، وهو يحادثني. لكن سريعًا ما أدركت أنه كان في بلكونة شقته أو بالقرب من أحد شبابيكها المطلة على الشارع. وكان يمكنني الإنصات إلى ضوضاء القاهرة الليلية التي تسمع من الشرفات، في خلفية المكالمة. تلك الضوضاء التي لا تخطئها الأذن المدربة، بعد منتصف الليل آتية من أسفل، من مكان سحيق، خافتة وناعسة ومختلطة برائحة دافئة للغبار ولسعة خفيفة من الرطوبة. وللحظة لطمتني رعدة من الحنين، فذاكرة تلك الدوشة الخاملة وونستها أضحت الشيء الوحيد الذي أفتقده ولو قليلًا بخصوص القاهرة، وما زال يربطني بها وبتاريخي فيها. أفاقني سباب أيمن ولعناته من

لذة الإنصات إلى ضوضاء الماضي. فرنة الغضب في صوت أيمن ذكرتني بأنه ليس فيما تركته ورائي ما يستحق الندم. وبلا شك لا مكان للحنين إن انتفت أسباب الندم.

"بلد وسخة، وعالم وسخ، والواحد مبقاش عارف يروح فين ولا يعمل في نفسه إيه! يعني لا سابوهم يشوفوا الواد قبل ما يندفن عندك، ولا حتى ياخدوا عزاه من غير مايشوفوه هنا، إيه الغلب ده!"

فكما وعد أيمن أهل غياث، حجز لهم قاعة المناسبات في مسجد قريب من محل سكنه، وقد حاول في البداية أن يحجز مكانًا في مركز شباب أو شيئًا من هذا القبيل، لأن هذا ما كانت تفضله الأسرة. لكنه لم ينجح. فكل الأماكن كانت محجوزة مقدمًا، وهو اعتبر نفسه محظوظًا في الحقيقة لأنه وجد قاعة متاحة للحجز في اليوم نفسه. وكان خادم المسجد قد ألمح بأنه يسدي له خدمة كبيرة، وهو يؤنبه على تأخره في حجز المكان قبلها بوقت كافٍ. واستنكر أيمن الأمر، فكيف لأهل الميت أن يعرفوا بموعده مقدمًا! وهو لم يفهم سر الأزمة تحديدًا، هل هي في وفرة الموت والمناسبات عامة على حساب الحياة نفسها، أم في ندرة قاعات المناسبات! ورد عليه خادم المسجد بإجابة لم تقنعه تمامًا، لكن كانت كافية لإسكات تساؤلاته حينها، فالحياة أضحت أكثر تنظيمًا، وللموت جلاله وكل شيء، لكن على أهالي الموتى أن يتحلوا ببعض المسؤولية، وأن يتفهموا أن للعالم أمورًا أخرى يجب تصريفها في موعدها أيضًا.

قام أبو غياث، بالاتصال ببعض معارفه في القاهرة _وكان بالطبع معظمهم من السوريين المقيمين هناك_ ودعاهم لعزاء ابنه. ولم يكن من المتوقع أن يكون العدد كبيرًا، عشرين فردًا على أقصى تقدير. لكن ومع تواضع المناسبة، سمع أيمن في صوت الرجل المكلوم رنة من الحياة بل وأيضًا قليلًا من الفخر، وهو يخبر محدثيه على الهاتف بأن كل شيء، رغم الغربة وضيق الحال، سيجري بحسب الواجب. وأمّن محدثوه على أقواله، بوقار لافت، فالأصول هي كل ما تبقى لهم، بعد أن تركوا الكثير وراءهم مرغمين.

أما أم غياث، فقد رفضت أن تشارك في العزاء، وقررت البقاء في الشقة مع الأولاد. ففكرة أن الولد لم يمت أو أنه يتصنع الموت، كانت لا تزال تراودها من حين لآخر. هذا غير أنها أنبت زوجها على حماسه غير المفهوم، فلا تصح الجنازة والجثمان في مكان آخر بعيد وبارد، فهذا ليس ما يفعله الناس الأوادم. وتبرمت من الأمر برمته، قائلة إن زمن الجنازات الهادئة قد ولى، فالموت بالنسبة لأناس مثلهم أصبح معقدًا كما الحياة بالضبط. ومع كل اعتراض لها، أصبح أبو غياث أكثر تمسكًا بتتميم العزاء، وبدا واضحًا له أن تلك الجنازة بل وحتى مجرد التظاهر بتمسكه بالأصول يمنحه شعورًا غريبًا بالحياة، ويحيي انتماءه لماضٍ، أصبح بعيدًا جدًّا، وخربًا جدًّا.

ولم يكن هذا رأي رجال الشرطة الذين وصلوا إلى القاعة بعد دقائق من حضور أول المعزين. فخادم المسجد تشمم شيئًا مثيرًا للقلق حين سمع

اللهجة السورية، وقام بالإبلاغ في الحال عن اجتماع يدعو للريبة، وجنازة دون جثمان. ففي تلك الأيام، كان كل شيء مبررًا للشك، وكان التليفزيون يدعو الناس للتحلي بالحذر، ومن الغرباء تحديدًا كالعادة.

ودخل اثنان من رجال الأمن، في ملابس مدنية إلى القاعة، وصافحا أبو غياث بقليل من العجرفة، وجلسا لربع ساعة في القاعة، غالبًا لشرب القهوة السادة لا أكثر. وشعر الرجل ببعض الفخر بحضور هذين الغريبين لمناسبته، وظن في نفسه أن للموت ألفة تجمع الناس من حولها. فهو نفسه لطالما مشى في جنازات لأناس لا يعرف عنهم شيئًا، وكان هذا يمنحه بعض الرضا عن النفس.

وبعد أن انتهى الرجلان من قهوتهما، وبدا أنهما استمتعا بها أكثر من اللازم، استدعيا الرجل إلى الخارج، وتهامسا معه لبضع دقائق. وتبعهم أيمن وحاول التدخل، لكن لم يكن ممكنًا فعل الكثير، فإقامة أبو غياث كانت منتهية، وكان هذا مبررًا كافيًا لإلقاء القبض عليه. وتحول العزاء إلى كمين، فمن لبى الدعوة، كان في استقباله البوكس في الخارج، وبات ليلتها في الحجز 19 من معارف الرجل، لم يتمكن سوى قليل منهم من شرب القهوة قبل أن يحدث هذا. واحد فقط ممن وعدوا بالقدوم تعطل في الطريق، فنجا لحسن حظه. وحين وصل إلى القاعة، كان البوكس قد غادر. وهذه واحدة من الصدف التي تلفت اهتمامي إلى أقصى حد، وكنت أتمنى أن أستوقف أيمن لأعرف المزيد من التفاصيل عنها، لكن الوقت

لم يكن مناسبًا. أما أم غياث والأولاد، فتم إحضارهم من الشقة إلى القسم لاحقًا في سيارة الشرطة. وكان الأمر سيكون هينًا، لولا أن أمين الشرطة قد أصر على وضع الكلابشات في يديها، رغم توسلاتها ألا يفعل ذلك أمام أطفالها.

اتصل أيمن بمحامٍ من معارفه، ووعده بالحضور، لكنه لم يظهر على الإطلاق، وأغلق هاتفه. وفي القسم كان الضابطان اللذان توليا التحقيق غير مقتنعين بالمرة، بحجة الجنازة دون صندوق أو كفن. أما قصة لندن والسفارة وكل هذه التفاصيل فكانت سببًا إضافيًّا لشكهما. وظلا يعيدان أسئلة على المحتجزين عن علاقتهم بجماعة الإخوان المسلمين، ورأيهم في مرسي والحرب في سوريا، وما يظنوه في هيلاري كلينتون. وتطرق أحد الأسئلة لصربيا أو شيء من هذا القبيل، وأربك هذا المعزين إلى أقصى حد، ولم يفهموا لماذا يجب عليهم أن يكون لهم رأي في صربيا بالأساس، وحتى لو كان فلماذا يكون له أي أهمية لرجلي الشرطة. وكان ترددهم الواضح بخصوص هذا السؤال تحديدًا، دليلًا قاطعًا عند الضابطين، لتأكيد قناعتهما بأن للاجتماع المريب غرضًا سياسيًّا ما. وقفز أحدهم لاستنتاج، بدا له في غاية النباهة، بأن للأمر علاقة باعتصام رابعة تحديدًا.

وعند تلك النقطة، تحول مجرى الحديث بشكل مفاجئ، فالضابط الأقل بشاشة بين الاثنين، التفت إلى أبو غياث، وأثنى على جودة القهوة التي تناولها في العزاء، وسأله إن كانت هذه تحويجة سورية خاصة للبن. وكاد

الرجل، بالرغم من هول الموقف، أن ينفرط من الضحك، وأجاب ببعض الحياء بأن خادم المسجد هو من تولى أمر القهوة والتجهيزات الأخرى، وأنه لا شيء سوري بخصوصها في الحقيقة. ولم يعر الضابط تلك الإجابة المخيبة للآمال، كثيرًا من الاهتمام، واستطرد في مدحه للقهوة السورية، فهي جيدة جدًّا بأي حال، وكذا الشاورما السورية، والحلويات السورية، خصوصًا الحلويات، هي رائعة جدًّا. أراد الضابط أن يضيف قليلًا من الدعابة الذكية إلى حديثه، وأعرب عن تقديره لمحاسن الحرب التي ألقت بكل هؤلاء السوريين إلى مصر، هم وحلواهم.

"نعمل إيه بقى، مصائب قوم..."

وانزعج أيمن بشدة من جلافة الضابط، وأراد أن يقول شيئًا من باب الاعتراض. لكنه ظن أن كلامه يحمل قدرًا لا بأس به من المنطق، هذا غير أن الجميع انطلق في قهقهة صادقة، لطفت كثيرًا من كآبة الموقف. وانتهز أبو غياث المزاج الحسن في القسم، وقرر أن يلقي برميته الأخيرة، وهو يعرف أن الأمر لا يخلو من مخاطرة أكبر.

"إحنا إسماعيلية والله يا باشا".

وكان هذا خطأ كبيرًا، فالضابط الآخر، ارتعد وكأنه رأى شبحًا أمامه. وظهر كأنه على وشك الارتجاف، وهو يحملق في الرجل، وطلب منه أن يعيد ما قاله مرة أخرى. وكان واضحًا أنه لم يفهم ما يعنيه أبو غياث، وإن كانت

سليقته الأمنية قد نبهته إلى أن هناك شيئًا مريعًا فيما قاله. والإنسان عدو ما لا يعرف طبعًا، وخاصة إن كان ضابط شرطة. ولم ينقذ الرجل المكلوم من هياج الضابط الذي بدأ في الخبط على المكتب أمامه بعنف، سوى تدخل ضابط الحلويات السورية، والذي ظهر أنه مثقف إلى حد كبير:

"إسماعيلية، بتوع الحشاشين والأغاخان والكلام ده".

حسم هذا الأمر بالنسبة للضابط الهائج.

"ولما إنتوا كده، بتعملوا إيه في الجامع، جايين تنجسوه؟"

ورنت لحظة من السكون. فلم يكن كل الحضور من الإسماعيلية، وبقي الجميع صامتًا لبرهة، وكل واحد منهم يحاول أن يزن مدى المخاطرة، إلى أن تجرأ أحدهم، وتبعه الآخرون. وبدأ المعزون يتبرءون واحدًا وراء واحد من صاحب العزاء، وهم يحاولون الكلام باللهجة المصرية، أملًا في أن يلطف ذلك الأمور:

"والله إحنا سنة يا باشا".

المساكين، وبالرغم من إقامتهم غير القصيرة فيها، لم يفهموا كيف تجري الأمور في مصر، فلا يوجد داعٍ للكلام في مثل تلك المواقف، فكل كلمة هي فخ مفتوح لصاحبها، والصمت أيضًا ضار في معظم الحالات. ابتهج الضابطان، وكأن معجزة قد هبطت عليهما من السماء، فهما كانا ينتظران تلك الإجابة من اللحظة الأولى للاستجواب.

قسم الضابطان الموقوفين لثلاث مجموعات، وفتح لكل منهم محضر منفصل، أولهم انضمام لجماعة محظورة وهذا كان من نصيب السنة. أما الإسماعيلية فحرر لهم محضر ازدراء أديان، وأضيف إليها اجتماع بدون ترخيص. أما الجماعة الثالثة والتي وقفت بين الاثنين، ولاذت بالصمت استسلامًا أو طلبًا للأمان، فهؤلاء دس لهم الضابط حرزًا من الحشيش، من باب الاحتياط، عسى أن يكونوا من جماعة الحشاشين، ويتسترون على الأمر. وختم ضابط الحلويات، التحقيق، باعتذار، كان بلا شك صادقًا فيه.

"يا جماعة، إنتم والله زي إخواتنا، بس هي الظروف، واعذرونا برضوا إحنا لازم ناخد احتياطنا".

وأبدى الموقوفون تفهمًا لا يقل صدقًا عن اعتذاره، وهم يهزون رؤوسهم بالإيجاب، وعلى وجوههم علامات تعاطف غير مصطنع.

"ربنا يعينكم يا باشا".

كان صوت أيمن مثقلًا بالعار، وهو يروي لي ما حدث. ليس لأنه خذل ضيوفه، الطالبين للأمان في بيته وبلده، بل لأنه كان من ورطهم في كل هذا، ظنًّا أنه يسدي لهم خدمة ويخفف من مصابهم. أفلتت منه شهقة، فهمت منها أنه كان على وشك البكاء، أو كان يبكي بالفعل، ويحاول كتمان صوت نهنهته عني. لكن الحقيقة كانت أن أيمن رأى بُرصًا يجري من البلكونة إلى داخل الشقة، وحاول وضع قدمه في طريقه ليحول وجهته،

لكنه لم ينجح. وهذا كان خطأه بلا شك، فكان عليه ألا يترك باب البلكونة مفتوحًا هكذا.

"إنت كنت صح، لما سبت البلد ومشيت، لا وأنا كنت بقولك مكاننا هنا، والكلام الفاضي ده!"

لم أجد ما يمكنني قوله للتخفيف من شعوره بالعجز. خاصة وأن تلك واحدة من المرات النادرة التي يقر فيها أيمن بالخطأ علنًا، وربما المرة الوحيدة. وبالطبع لم يكن الوقت مناسبًا للتشكي من تبعات قراري بالرحيل، الذي عارضه هو في الماضي ويمدحه الآن. واكتفيت في السكنات القصيرة التي تخللت حديثه، بترديد بعض العبارات الخالية من المعنى، والتي تقال في مثل تلك الظروف: "هنعمل إيه بس"، "إنت مش ف إيدك حاجة"، "سيبها على الله".

أعفاني أيمن من مهمة الجنازة، فغير أن التوكيل لم يصدر، فالعائلة بأكملها أصبحت في السجن. وإن كان هذا حال الأحياء، فأي فرق ستفعله الجنازة للموتى. بل وخطر لي أن إقامة عزاء في مثل تلك الظروف، يحمل استهانة بمعاناة من لم يمت بعد وبخس لشقائهم. فالأحياء، لا الميت، هم الأجدر بالتأكيد لإقامه الجنازات على شرفهم. لكن مع هذا، فإنه ألمح لي بأنه ما زال ينتظر مني شيئًا، فلقد ترك القرار لي. وأنا لم أفهم أي قرار هذا، الذي يتكلم عنه. وتظاهرت بالموافقة، ووعدته بأنني سأخبره في الغد إن كان هناك شيء يمكنني القيام به. ودخلت إلى السرير عاقدًا النية، على

نسيان الأمر وكأنني لم أسمع عنه شيئًا على الإطلاق. فما علاقتي أنا بكل هذا اللغو الذي تفرع من قصص الدلفين الطيب إلى السفارة البريطانية والآن القهوة والأغاخان والبقلاوة السورية.

وترددت في ذهني آية إنجيلية، نطق بها المسيح، ولم يكن لها أي معنى في تلك الظروف لكنها بدت لي مناسبة جدًّا. وكان ترديدها بصوت وقور لنفسي، كافيًا لطمأنتي على أن تجاهل الموضوع هو القرار الأصوب.

"دع الموتى يدفنون موتاهم".

زارتني جدتي بديعة ليلتها، وكان واحدًا من تلك الأحلام التي يظهر فيها الأشخاص على غير هيئتهم وبأصوات غير أصواتهم. ومع هذا، يتعرف عليهم صاحب الحلم دون جهد. ولا يشغل نفسه بتفسير تلك البداهة التي يلصق بها أسماء لأناس يعرفهم بغيرهم، ويصب بها على الغرباء مشاعر لها تاريخ طويل يخص أناسًا آخرين.

ظهرت الجدة في صورة السيدة (أ)، وبصوت يشبه صوتها، وإن كان أكثر غلاظة وثقة، وكنت معها في غرفتها في نزل المشردين، الذي زرتها فيه هذا الصباح. ولم يكن كايودي هناك، كنت أنا وهي وحدنا. ولسبب ما، كان كلانا حافيًا، وأشعرني هذا ببعض الخجل وإحساس بالخواء.

سحبتني من يدي إلى خارج الغرفة، وبدأت في التقدم بخطوات منتظمة في الطرقة الطويلة في الطابق الأرضي للنزل. كان كل شيء مظلمًا، لكننا

كنا نستطيع أن نرى حولنا دون مشقة كبيرة، وعلى ما يبدو أننا كنا قادرين على رؤية من حولنا لكنهم لم يتنبهوا لوجودنا. تحدثت لي بلغة لا أعرفها، وظننت أنها الكردية، لكنني كنت أفهم كل ما تقوله في رأسي. مررنا بالأطفال المكومين على بلاط الأرضية، وتوقفت هي جانبهم لبرهة، وهمست لي:

"كل إللي بيتولد هنا، بيتولد ميت".

رددت عليها معترضًا:

"بس دول مش ميتين يا تيتة ولا حاجة".

وظهر علي وجهها نفاد صبرها مني، وهي تقول لي:

"يا بابا إحنا في حلم".

وظننت أنها عنت أن الأحلام تحتمل بعض المبالغة، وأن عليَّ التحلي ببعض الخيال والمرونة. لكنني كنت مخطئًا وهي صححت لي ما فهمت، وقالت لي بما معناه إن الأحلام تفضح الحقيقة، وترينا ما لا نراه في الواقع. فهناك من هم أحياء في الواقع وأموات في الحلم، والعكس صحيح أيضًا. وقالت لي لغوًا كثيرًا، وإن الحقيقة غير الواقع، والواقع غير الحقيقة. ولم أحاول فهم ما كانت تعنيه، ولم أهتم حتى بسؤالها.

استكملت بديعة السير، وهي مازالت قابضة على يدي، وجذبتني إلى داخل غرفة الست الحامل التي مررت بها في الصباح وهي تحاول حشر رأسها في الشباك. كانت الغرفة ما زالت مكتومة وحارة جدًا، والمرأة نائمة

ومستلقية على ظهرها. بدا من حركة صدرها أنها تعاني من صعوبة في التنفس. تفرست الجدة في وجهها المنتفخ وفمها الفاغر على آخره، لثوانٍ، ومسدت بيدها على خصلات شعرها الخشن، وبدأت تخبرني بقصتها، وكيف انتهت إلى النزل، وكيف ماتت ميتة بشعة. وكالعادة كانت القصة غير قابلة للتصديق، ومتناقضة، وتزخر بكثير من المبالغات.

"بس دي مش ميتة يا تيتة!"

"مش مهم، هتموت بعدين".

شعرت وكأنها تحاول دفعي للشعور بالذنب، لسبب ما، وقاومت ذلك بقدر الإمكان. فليس هناك ما أستطيع أن أفعله لأحد هنا أو في أي مكان آخر. يكفيني ما أشعر به من عجز، ولا ينقصني أن أضيف لذلك تأنيب الضمير.

"يا حبيبي، ده حلم، حاول حتى تساعدها في الحلم على الأقل".

"أساعد مين بس، ده أنا إنجازي الوحيد إني خرجت من البلد".

"وإنت لما تخرج من البلد، فاكر كده إنك فلت!"

حاولت أن أفتح شباك غرفة المرأة ولم يكن هذا ممكنًا، وكل ما نجحت فيه هو إحداث ضجة كبيرة خشيت أن توقظها. وتخليت عن المحاولة سريعًا كعادتي. كانت الجدة مصممة على ما تفعله، وجرجرتني من غرفة إلى غرفة، وكان الجميع نيامًا، أو نصف موتى.

واختلقت قصة حزينة ومأساوية ظنتها مناسبة لهيئة كل منهم، وكان واضحًا من لجلجتها أن المهمة لم تكن هينة، على الرغم من خبرتها الطويلة. فالحكايات لم تكن تجري حولنا فقط، في لندن وليفربول وبلفاست، بل في أماكن أخرى كثيرة وبعيدة، جاء منها أصحابها: في باكستان ونيجيريا والهند وبوليفيا والجزائر وبلغاريا وجنوب إفريقيا والهند والترينيداد وكل بقعة يمكن أن تتصورها على الأرض. وأنا كنت مندهشًا أن الجدة عرفت بأسماء كل تلك البلاد.

كنت قد بدأت بالشعور بالإرهاق، ولاحظت هي ذلك، فسحبتني إلى خارج المبنى، وكان كلانا لا يزال حافيًا، وشعرت بالقلق من أن يلاحظنا أحد من المارة. لكن الأضواء الباهرة والملونة التي انفجرت أمام أعيننا في الخارج، والصخب المبتهج المختلط بإيقاعات موسيقية عالية في الشارع شتت انتباهي. كل شيء أضحى مختلفًا في الخارج، شعرت وكأننا دخلنا إلى عالم آخر تمامًا.

الوقت كان متأخرًا جدًّا، ربما قرب الفجر، والشارع كان مزدحمًا على آخره. عشرات من الشباب السكارى يخرجون في مجموعات، من بار إلى آخر، ويترنحون في بهجة على وقع ضحكاتهم العالية، والمحبون اثنان اثنان، متعانقون ومتأبطون ويمسكون بعضهم بأيدي بعض حتى لا تطوحهم اللذة وتسقطهم أرضًا. كأن الأمر أشبه بحالة من الشغب العام غير المؤذي، لا مجرد عربدة ليلة سبت لندنية معتادة، كان الجميع سعيدًا في هياج.

توقف واحد من العابرين على بعد خطوات منا، وكان على ما يبدو سكرانًا جدًّا، وارتكن إلى حائط المبنى بإحدى يديه وفتح سحابة بنطاله بصعوبة بيده، وأخرج عضوه وبال بالقرب من المدخل، وكانت تخرج منه حشرجة طويلة وراقصة وكأنه وصل إلى ذروة النشوة الجنسية. وظننت أنه لا يرانا، لكنه التفت إلينا، بمجرد ما أغلق سحابه، وابتسم ابتسامة واسعة، وقفز في رشاقة فاجأتني، وطوق عنقي بذراعيه، وهو يهتف:

"ليلة سعيدة، ليلة سعيدة للجميع" .

لوحت له مودعًا، وتملكتني سعادة حقيقية، وودت لو أوقفته، للحظة، لأخبره بأنه محظوظ لأنه لا يعرف شيئًا عن هذا المبنى الذي يضم مآسي العالم كله، حرفيًّا كل مآسي العالم، أو نماذج منها على الأقل. وخطرت لي فكرة، أن المكان هو فخ لاصطياد كل البؤس في الدنيا. وتم حجبه هو وأصحابه عن الناس خارجه، حتى لا يفسد طمأنينتهم نهارًا وبهجتهم ليلًا. ولذا فمن الأفضل أن يظل المبنى وما يحدث فيه سرًّا، لا يعرفه سوى القلائل. كنت قد نسيت الجدة لوهلة، ونظرت حولي بحثًا عنها. كانت ما زالت واقفة ورائي، لكن هيئتها تغيرت، وأصبحت تشبه نفسها أخيرًا، وفهمت أن هذا دلالة على اقتراب الحلم من نهايته.

"اهرب، اهرب من هنا" .

حاولت أن أنطلق في الجري، لكن عضلاتي كلها تجمدت، فجأة، وكما

يحدث غالبًا في الكوابيس، ولم أكن أعرف إلى أي اتجاه عليَّ أن أهرب، ومن ماذا تحديدًا.

"مش عارف السكة يا تيتة، وموبايلي قاطع شحن".

"مش قولت لك ميت مرة تشحن قبل ما تخش تنام!"

وعند تلك الجملة انتفضت مفزوعًا من النوم، وكانت عيناي نصف مفتوحتين، وأنا أبحث بيدي على سطح الطاولة الموضوعة بجانب السرير. ووجدت أصابعي طريقها إلى الموبايل، وكان سلك الشاحن متصلًا به. وهدأ هذا من روعي بعض الشيء. لكن وبمجرد ما رفعت التليفون ونظرت إلى الشاشة، تبددت طمأنينتي في الحال، فقد وجدت حوالي 18 اتصالًا من كايودي، معظمهم بعد منتصف الليل، ولم تكن علاقتي به تسمح لنا بالمكالمات التليفونية بعد الرابعة صباحًا. وفي الحقيقة لم تكن علاقتي بأي شخص في لندن من العمق بحيث تسمح بهذا أيضًا. وأصابتني هذه الفكرة بالحزن. فإن لم يكن لك أصدقاء يمكنك مهاتفتهم الساعة الرابعة صباحًا، فليس عندك أصدقاء. إلا أنني سرعان ما استعدت تركيزي، وفتحت الرسالة التي أرسلها إليَّ كايودي حوالي الساعة الخامسة:

"رجاء، اتصل بي بمجرد أن تصلك هذه الرسالة الأمر عاجل جدًّا".

ويبدو أن كايودي لم ينم ليلتها على الإطلاق، فكان هناك رسالة ثانية حوالي السادسة إلا ربع:

"لو سمحت، لا تذهب إلى المكتب، أو تتحدث إلى أيٍّ من الزملاء، قبل أن نتكلم. هناك أمر عاجل ينبغي أن نناقشه".

وبينما كنت أقرأ الرسالة للمرة الثانية، بدأ الهاتف في الاهتزاز في يدي. كان كايودي يحاول الاتصال مرة أخرى. نجح في دفعي للقلق لكن إلحاحه أزعجني للغاية وقررت ألا أجيبه. فهمت أنه يريد أن يتكلم معي. كان هذا كافيًا، ولا داعي لكل هذا. أغلقت في وجهه الخط بكبسة غاضبة. وفي اللحظة التالية، كنت قررت أنني لن أذهب إلى العمل. فأنا أفضل تحاشي المشاكل في الأغلب. وحتمًا هناك مشكلة، ولم أكن في مزاج يسمح لي بمواجهتها اليوم. كتبت رسالة قصيرة إلى مديري ادعيت فيها المرض، واستأذنته في أن أتغيب اليوم بكامله. وبدأت في البحث في محادثات الفيسبوك عن رسالة أيمن التي كتب لي فيها عنوان المستشفى التي يرقد فيها جثمان غياث. فزيارة الجدة الليلية كانت قد أقنعتني إن لم أكن مفيدًا للأحياء، فأضعف الإيمان أن أفعل شيئًا من أجل الموتى.

ولم أشأ تضييع أي وقت، فبعد دقائق قليلة من قفزي من السرير على عجل، أصبحت بالفعل في الشارع وفي طريقي لمحطة القطار. وكنت لابسًا قميصًا محترمًا، لا أخرجه إلا للمناسبات الهامة. وأنا عادة لا أرتدي قمصانًا للذهاب للعمل، وأكتفي بالتيشيرتات. فسيكون من المهانة أن يتهندم المرء من أجل وظيفة بهذا التدني على السلم الإداري. ونادرًا ما دعاني أحد لمناسبة تتطلب زيًّا خاصًّا. وكانت هذه هي المرة الثانية التي أرتدي فيها

قميصًا في ثلاث سنوات. فقبلها ذهبت إلى مراسم قسم الولاء للملكة من أجل الحصول على الجنسية. ولم يكن هناك حقًّا أي داعٍ للتهندم من أجل المناسبة. فأنا لم أقابل الملكة بالطبع، بل وقفت أمام صورتها، وتحدثت إليها كالمجانين.

وهذه الحقيقة أحزنتني أيضًا جدًّا، فأي لذة في الحياة إذا لم يكن هناك مناسبة لارتداء القمصان سوى مرة كل بضع سنوات. فعدد المناسبات التي يحتاج المرء فيها لارتداء القمصان تقول الكثير عنه، وعن المدى الذي وصل إليه في الحياة.

لكن ما خفف عني، هو أنني وصلت إلى المكان سريعًا، فهو لم يكن بعيدًا بأي حال، ثلاث محطات بالقطار لا أكثر. وأنا أحب "وايت تشابل"، وأشعر بالألفة فيها أكثر من أي مكان آخر في لندن. وهي منطقة مليئة بالمفارقات التي تضحكني كثيرًا حين أفكر فيها. بالرغم من أن اسمها يعني الكنيسة البيضاء، فإن بها أغلبية مسلمة كبيرة، وأشهر معالمها هو مسجد أبيض كبير، ومعه شارع "بريك لين" السياحي، والمعروف بمطاعمه الهندية. وكما يعرف الجميع فإن الشارع ليس به مطعم هندي واحد تقريبًا، فكله مطاعم بنغالية. وهذه المفارقات تحديدًا، والتي صادفتها مبكرًا عند وصولي للمدينة، نبهتني من البداية إلى التشكك في الكثير من الأشياء في لندن، وفي مدى مطابقة المسميات لموضوعاتها.

بينما كنت أعبر الشارع من المحطة إلى المستشفى التي لا تبعد سوى

دقائق قليلة، انتابتني الأفكار المبهجة التي تصيبني عادة كلما مررت بـ"وايت تشابل". فأي مرونة تلك التي يتميز بها الإنجليز ولغتهم، فهم متسامحون جدًّا مع الألفاظ ودلالتها كما مع كل شيء آخر، وخصوصًا حين يتعلق الأمر مع الهند. وأنا لا أعني هنا شركة الهند الشرقية، وإن كانت شركة حقًّا أم لا، أو كيف تنقلب الشركات إلى إمبراطوريات، والإمبراطوريات إلى شركات، كما هو العرف هذه الأيام. بل كنت أفكر في أشياء أخرى تمامًا لا علاقة لها بالهند. كأن يطلقوا على جزر في البحر الكاريبي، الهند الغربية، وعلى سكان الأمريكتين الهنود الحمر، أو أن يطلق لغوي إسكتلندي، قبل قرنين على منطقة من العالم، اسمًا مضحكًا جدًّا وملفقًا تمامًا هو الهند الصينية. وإلى الآن لا أستطيع أن أجزم إن كان تسمية كهذه تدل على سعة الخيال الجامح أم ضيق الأفق وبلادته. لكن الشيء الأكثر إضحاكًا هو أن يلتصق هذا الاسم بالمنطقة إلى اليوم. ولا عجب أن بعد كل هذا الارتباك الذي أدخلته اللغة الإنجليزية على جغرافيا العالم وناسه أن يصبح الجامع الأبيض كنيسة بيضاء أو خضراء أو أن تشتهر إنجلترا بالشاي، أو أن تصبح أكلة الكشري الهندية الطبق الشعبي الأول في مصر. ولوهلة، قفزت في رأسي فكرة مثيرة جدًّا، وهي أن كايودي مخطئ تمامًا، فليس جميعنا سودًا كما يظن، فالأوقع أن نكون كلنا هنودًا.

ولم تتح لي فرصة للاسترسال في أفكاري إلى أبعد من ذلك. فحين وصلت إلى نقطة الكشري في ذهني، شتتني سؤال موظف الاستقبال عن غايتي

من الحضور إلى المستشفى. وللمفاجأة لم أكن مستعدًّا لمثل هذا السؤال. فماذا عساي أن أخبره؟ أنا هنا من أجل جثة شخص لا أعرفه! وفي محاولة لإخفاء ارتباكي، أبرزت كارنيه العمل وقربته من وجهه قليلًا، متظاهرًا بأنني في مهمة رسمية. وظهر أن الحيلة قد نجحت أبعد مما تصورت. حيث قال:

"هل أنت هنا بخصوص شخص متوفى؟ الدور الرابع مكتب 415".

ولم يعبأ الرجل بالتأكد من مدى مناسبة إجابته لغرض زيارتي. وانتقل في الحال للحديث مع الشخص الواقف ورائي في الصف. وكانت هذه إيماءة واضحة بأن حوارنا قد انتهى. ولم يكن لدي أي سبب لإطالته أكثر من هذا. إلا أنني تسمرت في مكاني لثانية أو اثنتين من الدهشة. فكيف خمن أنني هنا بسبب جثة؟ وكان عليَّ أن أصعد الأربعة طوابق على السلم، فمصعد واحد من أربعة كان يعمل، وطابور طويل جدًّا من المرضى وذويهم كان واقفًا أمامه.

وفي المسافة بين الدور الثاني والثالث، خطرت لي فكرة وجدتها نيرة جدًّا رغم بداهتها. فالمشافي ليست أماكن للصحة بل للمرض، ويرتع فيها الموت أكثر من الحياة. ولذا ففرص حضوري بسبب جثة عالية بشكل عام، والأمر لم يتطلب منه سوى إلمام بسيط بنظرية الاحتمالات. وتبددت قناعتي تلك بينما كنت أرتقي سلالم الدور الأخير، وفقدت اهتمامي بالمسألة. فالوصول إلى المكتب كان يحتاج انتباهًا لكامل الحواس. وطرقات المستشفى

كانت مثل متاهة دائرية، ومتشعبة، وفكرتني كثيرًا بتصميم نزل المشردين الضخمة متعددة الطوابق التي أرتادها عادة لأغراض العمل. ولم أشغل نفسي بالتفكير في الحكمة وراء هذا التشابه، وركزت على تتبع أرقام الغرف، ودرت دورتين حول نفسي، ورجعت لنفس النقطة التي بدأت منها، قبل أن اكتشف أن المكتب الذي أقصده، على يميني.

كان الباب مواربًا. وطرقته أولًا، قبل أن أحشر رأسي بين مصراعيه. ولم يكن هناك أحد بالداخل، والغرفة كانت ضيقة جدًّا، بالكاد كافية لنصف طاولة وكرسي يبدو أن وجه صاحبه سيلتصق بشاشة الكمبيوتر لو حاول الجلوس عليه. وشعرت للحظة بالشفقة على الموظف الذي يشغله، قبل أن يفاجئني صوت ودود جاء من خلفي.

"هل تبحث عن شيء؟ هل أستطيع أن أساعدك؟"

سحبت رأسي في الحال، والتفت إلى صاحب الصوت، الذي كان طويلًا جدًّا ونحيفًا جدًّا، وبرزت تفاحة آدم من عنقه بشكل لافت للنظر. وبدا وكأنه مندهش جدًّا لرؤيتي لسبب لم أفهمه.

"أنا أبحث عن جثمان متوفى، للقيام بإجراءات الدفن" .

"أنت في المكان الصحيح إذًا، هل أنت مصري؟"

"نعم، كيف عرفت؟"

"شكلك مصري جدًّا، وكأنك منحوتة فرعونية في المتحف البريطاني".

"حسنًا، هل تعرف أين الموظف المسؤول؟"

"أنا أحب التاريخ المصري جدًّا، تعرف كنت مهووسًا به في المدرسة".

"رائع، هل ممكن أن تجاوب على سؤالي؟"

"بالطبع، أنا الشخص الذي تحتاجه، لكن قل لي أولًا هل زرت الأهرامات كثيرًا؟"

"لا ليس كثيرًا، هل ممكن أن نرجع لموضوعنا؟"

"غريب، ليس كثيرًا؟ لماذا؟!"

"لا أعرف، نحن في مصر لا نزور الأهرام كثيرًا. رجاء أنا أبحث عن جثمان وصل يوم الاثنين".

"لكنك مصري، صح؟"

"نعم".

"ولم تذهب للأهرامات كثيرًا؟"

"صحيح".

"هذا أغرب شيء سمعته في حياتي. كم مرة زرتها؟"

"لا أتذكر مرة أو مرتين، الرجل الذي أبحث عنه كان سوريًّا".

"حسنًا، أنا من نيوزلندا، وكنت قد جئت هنا للالتحاق بفرقة أوركسترالية،

فأنا عازف محترف للكونترباص، هذه الآلة الكبيرة تعرفها، ها!"

"لطيف جدًّا، هل تعرف شيئًا عن جثة وصلت باسم غياث؟"

"طبعًا، كن صبورًا معي قليلًا. لم أحصل على الوظيفة في الفرقة الموسيقية في النهاية".

"أنا آسف جدًّا لسماع هذا... ربما كان في العشرين من عمره".

"آه وكان شكله أصغر من هذا بكثير. المهم انتهيت في وظيفة "رجل القطن" هنا. وهذا شيء لم أتوقع أن أفعله في حياتي أبدًا".

"رجل القطن؟"

"نعم حين ينتهي كل شيء، تصل الجثة لي، وأتولى أنا المهمة الأخيرة قبل تسليمها للدفن. نحشو كل الفتحات بالقطن، الأنف والأذنين والمؤخرة، وفي حالة الرجال نربط عضوهم الذكري بفتلة صغيرة. هذه وظيفتي".

"ولماذا تقومون بهذا؟"

"حتى لا تتسرب السوائل إلى خارج الجثمان. تعرف، حين يحدث هذا يكون المنظر بشعًا جدًّا. صديقك وصل في حالة سيئة جدًّا. يبدو أنه كان ميتًا لفترة طويلة. كانت ملابسه منقوعة في خليط من البول والبراز ووجهه مغطى تمامًا بالمخاط والدم".

"وكيف تعاملت مع الأمر؟"

"لا تقلق، اعتنينا به جيدًا. ولم تكن مهمة سهلة في الحقيقة. لو عندي نصيحة لك، ستكون ألا تموت مثلما مات. كن حريصًا أن يجدوك بعدها بنصف يوم على الأكثر. يعني بطريقة أخرى، عش وحيدًا إن شئت، لكن مت وحولك كثير من الناس".

"وظيفة شاقة فعلًا. هل يمكن أن أرى الجثمان؟"

"بالطبع شاقة، وأنا كرهتها في البداية. لكنني أحببتها بعد ذلك. وهي وظيفة مصرية تمامًا مثل تقاطيع وجهك".

"نعم؟"

"آه فكر، أنت تعرف التحنيط، أنا مثل المُحنِّط، آخر من يلمس الجثمان، ويُعده للحياة الأخرى. ترى أنا أعرف أشياء كثيرة جدًّا عن مصر".

"فهمت، حسنًا جدًّا".

"ربما تظن أنها وظيفة تافهة، لكنها ليست كذلك، فهي جوهر الكرامة الإنسانية. والبشر لم يكونوا مضطرين للتعامل مع موضوع الكرامة هذا إلا حين واجهوا الموت لأول مرة".

"بالضبط، ولهذا السبب تحديدًا أنا هنا. وأحتاج مساعدتك".

"لي سؤال أخير".

"تفضل".

"أنت تعرف التاج الذي كان يلبسه الإله حورس، التاج الأبيض، تاج المملكة الجنوبية!"

"نعم أعرف عنه بعض الأشياء".

"هو يشبه قنينة البولينغ تمامًا، صح؟"

"نعم بعض الشيء".

"تشابه مدهش جدًّا، هل عندك فكرة كيف حدث هذا؟"

كان صبري قد نفد تمامًا. كيف لي أن أعرف لماذا يشبه تاج حورس قنينة البولينج! الأبله يظن أنني خرجت توًّا من مقبرة، أو أنني وصلت إلى لندن على سطح مركب للشمس. هو لا يراني أصلًا، أنا مجرد جزء من ديكور في فانتازيا معبد فرعوني يتخيله في رأسه، ومصر التي يظن أنه يعرفها تجمدت عنده في نقطة قبل خمسة آلاف سنة على الأقل. كادت أعصابي أن تفلت تمامًا، لولا أن صاحبة المكتب وصلت حينها وقاطعت حديثنا وطلبت منه أن يغادر المكان بخشونة، لم أفهم مبررها. وهو لم يستجب بالكامل. فكل ما فعله هو أن تزحزح بضع خطوات ووقف في الردهة، ناظرًا لها بكثير من التحدي. ولم يكن في مكتبها مكان يسعنا نحن الاثنين، فوقفت أتحدث إليها من خارجه. ولم يتجاوز حوارنا أكثر من دقيقة، وربما أقل. فحين أخبرتها بغرض حضوري، سألتني إن كان لديَّ ما يثبت أني قريب للمرحوم، أو لديَّ وكالة قانونية بالنيابة عن عائلته. وحين حاولت شرح تعقيد الموقف

لها، قاطعتني بحزم وطلبت مني مغادرة المكان. ولم يكن هناك ما يمكن عمله أكثر من هذا، فلقد أغلقت الباب في وجهي وانتهى الأمر.

الفصل الخامس

كان نايل أكبر مني بسبع سنوات كاملة. وأعز الولد ولد الولد، كما يقولون. وهو أول الأحفاد، وخصت الجدة بديعة ابن خالتي هذا بكثير من القصص وكثير من الدموع أيضًا. وهو ابن البكرية، هيلانة، أكثر البنات الأربعة غُلبًا، والتي لم تذهب إلى المدرسة، ولم تتعلم لا القراءة ولا الكتابة، وعوضت هذا بأن جلبت للعالم 12 ابنًا، لا أعرف معظم أسمائهم، وأكبرهم لم يذهب للمدرسة وأصغرهم حصل على شهادة الدكتوراه. ويعود سر هذا التفاوت، إلى أن هيلانة على جهلها الرسمي، كانت مثقفة جدًّا بفضل استماعها إلى الراديو أربع وعشرين ساعة في اليوم، حتى حين كانت تخلد للنوم، لم تكن تخفض صوت المذياع ولو درجة واحدة. ولم تكن تنصت سوى إلى البي بي سي، وأحيانًا أقل، في الخريف خاصة، كان يطربها الاستماع إلى مونت كارلو وهي نفسها فشلت في أن تجد تفسيرًا لتفضيلاتها الموسمية

هذه. ولم تكن هيلانة مجرد مستمعة مخلصة فحسب، فلها آراء قوية بخصوص السياسة الدولية وكل شيء آخر، وتحتد حين تعبر عنها أمام الآخرين. فهي مثلًا، ما زالت ترى أن القبول بالصين في المجتمع الدولي كان خطأ فادحًا، وكانت تكرر في هذا الشأن جملًا رنانة جدًّا، وتقولها بالفصحى: حكومة *فرموزا هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الصيني.*

وتجرأ قريب لنا، في مرة على القول أمامها بأنه لم يعد اسمها فرموزا. وجن جنونها ساعتها. وانبرت في خطبة طويلة _لا علاقة لها بالأمر_ عن تحدي حكومة بكين للشرعية الدولية. وكانت تصرخ فيمن حولها وهي ترفع سبابتها بالوعيد، وتقول: لا تايوان ولا ماكو، فرموزا وحدها. وكان هذا واحدًا من المشاهد التي كان يستمتع أهل القرية بمشاهدتها، بنفس قدر تلذذهم حين تروي الجدة واحدة من قصصها. وكانتا الاثنتان دويتو ناجحًا إلى أقصى حد، بالرغم من الاختلاف الشاسع بينهما. فالجدة كانت ريفية وتتحدث كالريفيات من صعيد مصر، أما هيلانة فكانت تتحدث مثل رجل من يوركشاير، درس في أكسفورد، ويصوت بإخلاص لحزب المحافظين أبًا عن جد. ولم تخفِ الخالة ميولها النيوليبرالية، فبالنسبة لها تاتشر هي أعظم سياسية أنجبتها البشرية. وكان تفسيرها لقناعتها تلك هو الأغرب على الإطلاق. فالست ميرجريت كما كانت تنطق اسمها بوقار شديد، اخترعت نوعًا من الآيس كريم، يمكن تصنيعه بماكينات صغيرة سهلة النقل والتركيب، وهكذا ساعدت أصحاب الدكاكين الصغيرة أن يعتمدوا على أنفسهم وينافسوا في السوق (والمدهش أنني اكتشفت لاحقًا

أن تلك المعلومة شبه صحيحة). وهيلانة كانت امرأة أفعال لا أقوال، اشترت واحدة من ماكينات الآيس كريم التي ادعت أن تاتشر اخترعتها، ونصبتها أمام البيت وكانت تبيع منها لأولاد الجيران. وكان المشروع ناجحًا جدًّا، إلى أن بدأ أصحاب المحال في القرية واحدًا وراء الآخر في شراء الماكينات، التي أصبح اسم شهرتها الميرجريتة. وبار مشروع هيلانة. لكن لم يمنعها هذا، من أن تكون أكثر مؤيدي تاتشر في الصعيد الجواني، وربما مصر كلها، حين تعلق الأمر بسياسة تمليك وحدات السكن الاجتماعي لمؤجريها في بريطانيا، وإغلاق مناجم الفحم في شمال إنجلترا، وكذلك في حرب الفوكولاند. وذلك كله على خلاف الجدة التي كانت تمتلك وابورًا من صناعة الصين، وأخذت كذلك جانب الأرجنتين في الحرب، من باب الوفاء لأمريكا اللاتينية. فلقد كانت تصرف لحمًا برازيليًّا مجمدًا من الجمعية التعاونية مرة كل شهرين.

والعشرة ما تهونش غير على ولاد الحرام.

أما عن الإنجليز فهي لم تحبهم ولم تكرههم، وإن كانت لديها ضغينة خاصة تجاه مواشيهم. كانت تقول إنهم جمعوا في الحرب الكبرى قوت الفلاحين لإطعام خيولهم، وماتت عالم كثيرة بسبب المجاعة. لم توضح أبدًا، أي حرب تلك التي كانت تتكلم عنها، وإن كان من الواضح أنها الحرب العالمية الأولى.

وربما، بسبب تلك الاختلافات بين الجدة والخالة، أن رواية كل واحدة

منهما عن موت نايل تركزت على جوانب بعينها منه، لأسباب أيديولوجية بحتة. فابن الخالة، خرج ولم يعد، كما الجد، ولم يعثر على جثمانه أبدًا. والجدة تقول بأن الصحراء ابتلعته أو أنه فقد عقله حين سمع صوت الانفجارات ورأى القتلى، فهام على وجهه وأكلته الوحوش. أما هيلانة، فتقول إنه فدى رفاق سلاحه، وقفز أمامهم ليحميهم من دانة مدفع كانت في طريقها إليهم، فتمزق أشلاءً ولم يجدوا شيئًا منه ليجمعوه. وهكذا ركزت الجدة على التراجيديا في موت الولد في حفر الباطن. أما الخالة، وككل أصحاب الدكاكين الصغيرة والمتوسطة، فكان ما يهمها هو حس الواجب وموقف الشرعية الدولية من حرب تحرير الكويت، والأهم مبلغ التعويض الذي تلقته من الجيش بعدها، والذي لم يكن قليلًا بحسابات تلك الأيام ومقارنة بسعر الولد في السوق حينها.

وحقيقة الأمر، أن أيًا من تلك التفاصيل لم تشغلني كثيرًا، ومصير الولد الذي أخذوه من الدار للنار، في سن الثامنة عشرة، لم يزعج أحدًا. فالجميع كان لا زال مشغولًا بأخبار سعيدة عن إسقاط ديون مصر أو بعضها، وبسماع أغنية كويتية حزينة اسمها، "اللهم لا اعتراض"، وهي كانت أغنية جيدة فعلًا. لكن ما أثار اهتمامي في حكايات الجدة عن نايل وملاحمه في الصحاري هو تفصيل صغير، كانت هي قد أسهبت في سرده مرات ومرات. فالولد كما تقول، كان معسكره بجانب معسكر الأمريكان، وهم أولاد عمومة للإنجليز كما كانت الخالة تجزم، وتُضحكنا. وفي معسكر الأمريكان كان هناك نساء شقراوات وجميلات وطيبات أيضًا، ويلبسن

الزي المموه ويحملن السلاح. وفي الليل كانت الشقراوات يتسللن إلى خيام الجيران، ويبحثن عن نايل في الظلام وحين يجدنه، كن يعطينه هدايا في كرم، ويجزلن عليه الأحضان والقبلات، وكان ذلك سببًا في غيرة رفاقه بالطبع وحسدهم. ولم يكن هناك سر كبير وراء هذا الانجذاب الغامض. فالشقراوات مع كل قبلة على خد الولد، كن يقلن له: "أنت مسيحي، خذ بسكوت" ثم يضمونه في مودة أخوية، ويضفن إلى ذلك: "أنت مسيحي، خذ لبن"، "أنت مسيحي، خذ شكولاتة".

وكانت القصة تضحكني في كل مرة، وتضحك كل من يسمع الجدة وهي تقلد صوت الأمريكان، فتنطق كلمة مسيحي، بضم الميم وتقلب الحاء إلى هاء. وكانت ضحكاتنا تتملقها، فتبالغ في عوج لسانها والتغنج والتلوي بعجزها وهي تكرر جمل الشقراوات. وبالرغم من أن أداء بديعة لم يكن متقنًا بدرجة مقبولة، فإنني كنت طفلًا ساذجًا بما يكفي لأصدق أنه في اليوم الذي سيراني فيه الأمريكان أو أولاد عمومتهم من الإنجليز، فإنهم سيأخذونني بالأحضان. وقضيت زمنًا من طفولتي أحلم باليوم الذي سأصل فيه إلى أرض البسكوت والشيكولاتة، أو تأتي فيه الشقراوات إلينا هنا.

إلا أن أفضل ما يميز حكايات الجدة أنها متناقضة، وينسخ فيها الجديد القديم، أو يتعايش معه، بلا أدنى إحساس بالذنب أو داعٍ للاعتذار. وهذه سمات الإنتاج الغزير من الحكايات، وأصحاب السليقة الحاضرة، بأي حال.

فحين عبر خالي طانيوس البحر إلى إيطاليا، انقلبت الجدة ضد الخواجات، بعض الشيء. فبحسب قصتها عنه، حين اقتربت المركب من الشاطئ، وألقى من فيها أنفسهم ليسبحوا إلى البر، كان طانيوس لا يحمل شيئًا معه سوى أيقونة ببرواز خشبي مذهب لأم النور. كانت تحرسه في رحلته وتنجيه من الأخطار. لكن كان للأيقونة أغراض أخرى، فالخال وصل إلى مدينة ساحلية صغيرة لا يتقن من لغتها كلمة واحدة ولا يعرف فيها أحدًا، وكانت العذراء وسيلته الوحيدة للتواصل. فبعد أن حملته الأمواج إلى الأرض ووطئتها قدماه، انطلق هو في الجري دون أن ينظر خلفه. وفي أقل من نصف ساعة وصل إلى وسط المدينة. وهناك قصد الخال أول شخص قابله في الساحة الرئيسية، وبيديه الاثنتين رفع الأيقونة في وجهه، مع ابتسامة كبيرة. وكان يشير بأصبعه إلى صورة العذراء ثم إلى نفسه. وبعد أن كرر الإشارة عدة مرات، وأضحى جليًا له أنها غير ذات معنى للشخص الآخر، رشم الصليب على صدره. ثم شمر كم قميصه المبتل وكشف عن الصليب الأخضر المدقوق على ذراعه، ورفعه أمام الرجل، لكن دون ابتسامة هذه المرة. وزادت علامات العجب على وجه الخواجة، وأزاح طانيوس عن طريقه ببعض الخشونة وبعض الشفقة، ومضى إلى حاله.

إلا أن الخال لم ييأس، ولم يكن متاحًا له اليأس، فهو كان جوعان ومبتلًا وميتًا من التعب. فهرول بين شخص وآخر في الميدان، وكرر ما فعله سابقًا مرات كثيرة ومع أناس كثيرين. وكان يجري في دوائر وهو يحمل الأيقونة فوق رأسه عاليًا، وكأنه في مظاهرة. ولم يفهم أي من الناس ما الذي يفعله،

وإن أعطته سيدة عجوز بعض الأمل، حين بدأت في رشم الصليب معه، وقبلت الصورة. وأعطته بعدها عملة معدنية، لم يعرف قيمتها ولا كيف يمكنه أن يصرفها. وظل الحال على ما هو عليه، حتى دخل الليل، وافترش هو الأرض من التعب، ووضع الأيقونة أمامه، وألقى بعض المارة إليه بقليل من الفكة. وعطف عليه طفل صغير بنصف ساندويتشه بعد أن لاحظ نظراته الجائعة. وقبل منتصف الليل جاءت سيارة رسمية، وأخذته إلى كنيسة صغيرة، وابتهج هو لهذا أيما ابتهاج، وقدموا له هناك حساء ساخنًا وملابس نظيفة وسريرًا في غرفة مشتركة مع شخص آخر، وكان شابًّا أفغانيًّا ودودًا. ولم ينم طانيوس لحظة واحدة ليلتها، وبكى بمرارة لم يبكِ بها في قبل، فلقد وضعوه في حجرة واحدة مع مسلم وعاملوه مثل المسلمين، ولم يحزنه شيء أكثر من هذا في حياته.

ولا تعرف بديعة أبعد من هذا عن طانيوس، لكن للقصة تكملة بالتأكيد. فبعد سنوات كثيرة، جاء خالي إلى لندن لزيارتي. حضر ليرى بعينيه إن كان لي حقًّا كرسي أجلس عليه في العمل كما أدعي أم لا، وحين ثبت له صدقي فتح قلبه وحكى لي حكايته. فلم يكن كل الإيطاليين غير مبالين بأيقونته. فحين حصل على وظيفته الأولى، في مصنع الصلب، عطف عليه بعض زملائه ودعوه إلى نادٍ اسمه نادي الكتاب. وأفهموه أن الأيقونة التي يحملها معه إلى العمل كل يوم ويحتضنها طوال راحة الغداء، لن تنفعه هناك. فهذا بلد به أيقونات أكثر من اللازم والناس قد ملت منها ومن أصحابها، والأجدر به أن يحطمها في العلن وهذا سيجلب له الكثير من الأصدقاء.

وهو بالطبع لم يكن ليفعل هذا، فالخال لم يقطع كل هذا الطريق ويخاطر كل هذه المخاطرة كي يأتي إلى أوروبا وينكر إيمانه. وأي جنون هذا! اكتفى طانيوس بوضع أيقونته جانبًا، وأحبه لذلك رفاقه الجدد. وعلموه القراءة والكتابة بلغتهم، وأعطوه كتبًا ليقرأها. وشرب معهم البيرة في أمسيات الجمعة، ورقص مع بناتهم في ليالي السبت. وحين وصل إلى هذه النقطة من حكايته، همس لي ببعض الخجل: *"كانوا شيوعيين، والشيوعيين طيبين ويبحبوا الأجانب"*. لم يصبح شيوعيًا، وهم لم يطلبوا منه ذلك أبدًا. لكن حين حدث الإضراب الكبير في ميلانو، أول الثمانينيات، كان عليه أن يقف إلى جانب رفاقه. كانت مهمته تبدو بسيطة لكنها خطرة، وهي الوقوف في مدخل أحد المصانع، وبيده قضيب معدني ثقيل، لمنع الناس من الدخول. مر اليوم الأول بهدوء، لكن في اليوم التالي جاء أصحاب المصنع بعمال من خارج المدينة ليحلوا مكان العمال المضربين. وجدهم طانيوس يشبهونه، فقد كانوا ممن ألقت بهم المراكب على الشاطئ. حدثت مشادة كبيرة على البوابات. ففار الدم في عروق الخال، حيث كان شابًا عفيًا حينها، وبطح بقضيبه المعدني رأس واحدٍ منهم وشجها، فسقط الرجل من طوله. وحين رأى طانيوس الدم على يديه وعلى ملابسه، ألقى بقضيبه، وجرى بأقصى ما يمكن. قال إنه جرى أيامًا كثيرة بلا توقف، وحين تملكه التعب وجلس ليلتقط أنفاسه، كان الإضراب قد انتهى، وذهب بعض رفاقه إلى السجن، واختفى الشيوعيون من المدينة والبلد كلها. ووجد الخال بعدها وظيفة في مطعم تمتلكه زوجة رجل شهير، اسمه بيرلسكوني. لديه صورة مع

الزوجين، قبل انفصالهما، يعتز بها جدًّا.

حين وصلت أنا إلى جزيرتنا الصغيرة، بريطانيا، لم أكن محظوظًا مثل نايل مع الأمريكيات الشقراوات، ولا مثل خالي مع الشيوعيين الإيطاليين. ولم أتوقع استقبالًا حارًّا على الإطلاق، فلقد حذرتني جدتي قائلة إن أحفاد من قاموا بإطعام قوت الغلابة للماشية لن يهتموا بالأيقونات. أما خالتي فقالت إن الشيوعيين انهزموا شر هزيمة بعد أن اخترعت تاتشر ماكينة الآيس كريم، واشتراها الناس بقروض ميسرة. وقد اختفوا في نفس وقت اختفاء رفاقهم في إيطاليا. ولم يلاحظ أحد ذلك، فالجميع كان مشغولًا بسداد أقساط القروض، وتجهيز شقق الإسكان الاجتماعي التي اشتروها حديثًا.

عاملوني هنا كما يُعامل المسلمون. وكان هناك ما هو أسوأ من وضعي في غرفة مشتركة مع واحد منهم كما حدث مع الخال. ففي المطارات كانوا يوقفونني كما يوقفون المسلمين، ويفتشونني كما يفتشوهم، ويدققون في أوراقي كما في أوراقهم، ويسألونني أسئلة غليظة كما يفعلون معهم بالضبط. ومرة، في مطار هيثرو، أخبرتهم ودون مناسبة أنني لست مسلمًا، لم يفهموا واندهشوا. وحين قلت لهم بأنني مسيحي، وأنه في مصر هناك الكثير منا، انزعجوا جدًّا، وقالوا ببعض الرهبة: *"كفى، نرجوك لا تربكنا أكثر من هذا"* . كان الخوف يسير بجانبي أحيانًا، وهو حمل ثقيل بالفعل، فالشابات الجميلات في البارات والشوارع الجانبية المظلمة كن يخفن مني كما يخفن من

المسلمين. وأمام المدارس وفي الحدائق كان يخشى الآباء مني على أطفالهم، كما يخشون عليهم من المسلمين.

الناس هنا في معظمهم حسنو النية جدًّا، ولا ينكرون حقيقة أنني لست مسلمًا، إلا لأنها تشوش تصورهم عن النظام الدقيق الذي يحكم العالم. وأنا لا ألومهم، فتقسيم البشر إلى أصناف عبقري إلى حد مذهل. وتكمن عبقريته في فهم أي شخص له مهما كانت ثقافته ودون عناء.

وبالفعل التصنيفات الواضحة، ذات الحدود الواضحة وذات الأسماء التي لا تقبل التأويل، ضرورة لاستقامة الحياة. ولا يجب زعزعتها لمجرد إرضاء شخص واحد مثلي أو عشرة ملايين على شاكلتي من أصحاب الاستثناءات. ولذلك لا يمكننا سوى افتراض حسن النية. فجاري الذي يسكن في الشقة المقابلة، مثلًا، ما زال مواظبًا على تهنئتي برمضان والعيدين كل عام، بدقة يحسد عليها. في الماضي، كنت أخبره أنني لست مسلمًا، وكان يهمس لي *"لا داعي للخجل"*. كان يطمئنني بأنه لن يخبر أحدًا بالأمر، ثم يغمز بعينه اليمنى، ويلوح بيديه مودعًا: *"سلاموا أليكو" أو "الحمد لله"*.

وفي محل العمل، كانت الأمور مدعاة للتقدير، وتشي بدراية معقولة بالأديان ومعرفة فقيرة جدًّا بالجغرافيا للأسف. فكان الزملاء يندهشون جدًّا، وبعضهم يشهق من الصدمة، كل مرة يرون كأس البيرة في يدي: *لم نعرف أنك تشرب!* وكان هذا يحدث كل جمعة، حين نذهب إلى البار بعد العمل كعادتنا. كل جمعة فعلًا، ولمدة أعوام طويلة، ومع هذا ظلت

دهشتهم طازجة كما هي، وتتفجر بانبهار طفولي وطاهر. وفي مناسبات العمل الخاصة، حين كان يطلب مديرنا الإسكتلندي بيتزا للفريق كله، كان يطلب واحدة حلال، خصوصًا لي. وكنت أنا، وبقليل من الجحود ونكران الجميل، أبادل شرائح منها، بشرائح الزملاء الملغمة بطبقات من لحم الخنزير، الذي أحب مذاقه وإن كنت لا أكثر منه. وكان الجميع يندهش في كل مرة، كل مرة فعلًا، ويتساءلون بصدق: "أليس لحم الخنزير حرامًا!" أما مديري فكانت تبدو عليه علامات الحزن وكسرة القلب من أفعالي الصبيانية.

والزّن أمر من السحر فعلًا، والتكرار قادر على فعل الأعاجيب. وكان عنادًا من جانبي أيضًا، نوعًا عجيبًا من العناد. فبعد عدة أعوام من هذا كله، بدأت في صوم رمضان، وكل شيء بعد هذا حدث تدريجيًّا ودون تعمد. أطلقت لحية خفيفة في البداية، فهذه كانت الموضة أيامها، وتوقفت عن شرب الكحوليات بعدها بشهر أو اثنين بسبب مشاكل في المعدة. ولم أعد أذهب إلى البار في أمسيات الجمعة من باب التوفير أو الوقار. وحلقت شاربي في يوم من الأيام على سبيل الخطأ. وكنت أدقق جدًّا في موضوع الأكل تحديدًا، حلاله وحرامه لأسباب تتعلق بالحموضة. وبدأت ألبس جلاليب قصيرة في إجازات نهاية الأسبوع لأنها كانت أريح في الحركة وتلفت الانتباه. واعتدت التجول والسواك في يدي في الشارع الرئيسي لمنطقتنا، بعد أن نصحتني طبيبة الأسنان بالاهتمام بلثتي.

وهذا كان مريحًا للجميع من حولي، وأعاد إليهم طمأنينتهم، وعدل

صورة العالم كما كانت أمام موظفي الهجرة في المطارات وابتهج جاري أيما ابتهاج، وشعر رجال الشرطة وهم يفتشونني في محطات القطار براحة ضمير أكبر، وتوقف حزن مديري بعد كل مرة يشتري فيها لنا البيتزا. وأعجب الجميع بالبدلة الهندية التي اشتريتها من أجل زفاف صديق سيخي. وقالت لي إحدى الزميلات بورع حقيقي وصادق، وهي تتأمل الترتر الذي يزين البدلة: "ما أبهى الملابس الإسلامية! ما أجمل الإسلام!"

فعلت هذا كله من أجل الآخرين، وبالعند فيهم، لا من أجل نفسي، فكل تلك التحولات لم تعينني على راحة البال. بل على العكس، جلبت لي مشاكل من نوع آخر، كنت أتوقعها. فالمسلمون الحقيقيون لم يقبلوا أبدًا بي كواحد منهم، وأصروا على أنني نصاب. ولم يدعُني أيٌّ منهم بلقب "*براذر*"، كما ينادي بعضهم بعضًا، مع أنني حاولت جاهدًا أن أكون مستحقًا له. وظن بعضهم أنني أسخر منهم في الحقيقة، خاصة في الأوقات التي كنت أتحمس فيها وأضيف *ما شاء الله* إلى نهاية كل جملي. وشن البعض الآخر حملة عنيفة ضدي، حتى أن أحد خصومي نجح في إقناع محل الفراخ المقلية الأقرب إلى بيتي، بأن بيع الدجاج الحلال إلى غير المسلمين حرام شرعًا. وآلمني هذا، ففراخهم كانت لذيذة جدًّا، مقرمشة من الخارج وطرية من الداخل، وأسعارهم معقولة بالفعل.

وربما كل هذا كان في ذهني حين قفزت على رجل القطن وأمسكت بخناقه وبدأت في الصراخ في وجهه بسباب لم يفهمه. لم أتمالك نفسي حين

سمعته يقول بعربية مكسرة وبكل فخر ودون مراعاة لشعوري: "سلام عليكم".

نظرة الجزع في عينيه، وهو يحاول أن يخلص ياقة قميصه من يدي، أعادتني إلى صوابي. وشعرت بالخجل من نفسي. والناس من حولنا على بوابة المستشفى كانوا ينظرون إلينا في صدمة، وربما ظنوا أنني شخص مختل تمامًا. وعندهم كل الحق. ولم يكن الاعتذار كافيًا ولم يكن من السهل تفسير ما حدث. فشرح الأمر سيتطلب نفس الجهد الذي بذلته في محاولة وصف رائحة الحلبة لصديقة إنجليزية، والنتيجة غالبًا ستكون مشوشة تمامًا.

قلت له، وأنا أضغط على مخارج الألفاظ، بشكل يوحي بالتأثر: "التراكم... إنه التراكم".

وهو لم يفهم ما أعني بالطبع. وظل شاخصًا بي بإلحاح منتظرًا إجابة ترضيه. وكان عليَّ أن أخبره أن التحيات والسلامات ليست بريئة كما تبدو، والعبارات بأنواعها وحتى الكلمات الصغيرة التي تبدو محايدة جدًّا، مثل حروف الجر لها تاريخها الخاص ومعاركها وصراعاتها، والتي من الممكن أن تكون مريعة وقاسية. ولم يكن هذا أيضًا مرضيًا له، وبدا عليه الكثير من الضيق وهو يقول لي:

"لا أفهم هذا، ماذا تعني؟ كنت أريد أن أكون لطيفًا معك لا أكثر".

حاولت أن أتخلص منه بلطف، فهو لن يفهم بأي حال، لن يستوعب تلك الخلفيات عن المكان الذي جئت منه حتى لو ظن أن معرفته بالتاريخ

الفرعوني كافية. فهنا كل شيء يمكن تفسيره أو رفض فهمه بحجة اختلاف الثقافات. والحقيقة أن اختلاف الثقافات هو أفضل ما نجحت الصوابية السياسية في ترويجه. وقررت أن أعطيه نسخة مختصرة أكثر من اللازم من الإجابة، أو صيغة غامضة منها، عسى أن يصرفه ذلك الغموض عن إلحاحه. وبصوت متماسك يدعي الأهمية، كأنني أبوح له بواحد من أسرار الشرق، قلت له:

"الأمر معقد جدًا، لكن يمكنني أن أخبرك أن "السلام عليكم" ليست تحية مناسبة لي، ولا لهذا الموقف".

لم تكن حيلتي ناجحة، ودفعه عجزه عن فهم ألغازي، التي بدت عميقة، إلى الشعور بالمزيد من الإهانة. كان قد تراجع خطوة واحدة إلى الوراء، وأخذ نفسًا قصيرًا، ونظر إلى أعلى في تأمل لوهلة، متظاهرًا بالفهم دون اقتناع. ثم رفع حاجبًا واحدًا ونظر إليَّ وقال:

"ولو، هذا لا يفسر كل هذا الغضب".

لا أعرف على وجه الدقة ما الذي أقنعني بالتورط في تفسير الأمر بالتفصيل لذلك المختل. ولعل رغبتي في تبرئة نفسي من تهمة الاضطراب العقلي هو ما دفعني لذلك. فالناس من أصحاب الألوان الداكنة، من أمثالي، من السهل اتهامهم هنا بسرعة الغضب أو المبالغة فيه. ولذا يجدون أنفسهم مضطرين أكثر من غيرهم لإعطاء تفسير دقيق ومفصل لأقل علامة على غضبهم أو حزنهم أو يأسهم، وأي مشاعر أخرى غير محببة في هذه البلاد.

تجاهلت كل تلك القصص عن الجدة ونايل والخال، مع أنها مهمة جدًّا ووثيقة الصلة حتى لا يأخذ الأمر طابعًا شخصيًّا. واكتفيت بالجانب العام من الأحداث، وبدأت من نهاية الحكاية:

" حسنًا، في بلدنا كان لدينا الكثير من التحيات، والحقيقة كان لدينا خليط بديع من مئات التوافيق والتباديل الممكنة للتحية. كأن تضيف الصباح إلى أنواع من الزهور فتقول صباح الورد أو الفل أو الياسمين، أو توفق المساء مع أنواع من المأكولات المحلاة، فتقول مساء العسل أو القشطة، أو نصبغ اليوم ببعض الألوان، فنقول نهارك أبيض، أو يومك أخضر. ويمكننا أن نضيف الوقت من اليوم إلى أحد المثل والمطلقات المحببة، وتكون في صيغة المصدر، كصباح الخير أو مساء الجمال أو السعادة. وفي معظم الأحيان نستعين بالظواهر الطبيعية ذات الدلالات الأبعد، فنقول صباح النور أو نهارك نادي، بل وحتى نجمع النقيضين من باب المبالغة، ونقول مساء النور. وأحيانا ما يلجأ الناس إلى روح الدعابة، فيأتون بتحيات غير معتادة، كأن يقولون صباح اللوز مثلًا، فيرد الآخر صباح الجوز، أو مرات صباح الصباح، وهكذا يصبح الصباح مضافًا ومضافًا إليه في نفس الوقت، وهذا عبقري جدًّا كما ترى، ولا يقل عبقرية عن استخدام أنواع المكسرات المختلفة في التحية. وكان هذا فنًّا يستلزم تدربًا منذ الصغر ومواهب خاصة في مزج تلك التحيات وتبادلها، واختيار الردود المناسبة عليها، بحسب الظرف، والمقامات، وغيرها من تفاصيل دقيقة جدًّا".

وظهر أن رجل القطن أكثر نباهة مما ظننت. فلقد التقط الكرة التي

ألقيتها إليه، وأعادها إليَّ، وهو يستنكر بوجه تعلوه قسمات الاهتمام والمباهاة بسرعة بديهته:

"أين ذهبت كل تلك التحيات؟"

وأرضاني سؤاله تمامًا، فأنا على ما يبدو نجحت في توصيل فكرتي الأساسية، وهو فهمها بالرغم من صعوبتها. للتحيات كينونة مستقلة بذاتها، وصيرورة أيضًا. ولذا ما تبقى من تفسيري، لم يحتج الكثير من الجهد. كان مجرد سرد لأحداث تاريخية يعرفها الجميع. لكنني تظاهرت ببعض التردد، بلجلجة من ذلك النوع الذي يزيد مصداقية صاحبها، ولا ينقص منها:

"لا أعرف على وجه الدقة، حدث الأمر تدريجيًّا. كان هناك مؤامرة ضد التحيات. ولا أستطيع أن أجزم إن كان غرضها التخلص منها بالكامل أو احتكارها. البعض قال إن كثرة التحيات، هي مضيعة للوقت، وتعطل عجلة الإنتاج. وذهب آخرون إلى أنها تشجع على الرياء الاجتماعي، فكثرة السلام تقل المعرفة. وكان الأكثر تشددًا ينادون بأن بعضها يحمل كفرًا صريحًا، فالصباح لله، والتنوع دلالة الشرك أو يحض عليه بشكل ما. وكان الهجوم شرسًا حقًّا، ومن كل جهة، وتم تلطيخ سمعة تحية بعد أخرى. وأصبح الناس يتقززون عند سماعها، وتظهر على وجوههم علامات النفور والغضب. وولدت أجيال لم تسمع بكثير من التحيات التي عرفناها في الماضي. وجاء البعض بأن هناك تحية واحدة واجبة وملزمة للجميع، وهم ربما ظنوا وكانوا على حق أنهم إذا تحكموا في الطريقة التي يسلم بها

الناس بعضهم على بعض في الصباح حين يفتحون أعينهم، ملكوا قلوبهم وعقولهم، وحكموا نهاراتهم ولياليهم، وكل علاقة أخرى بينهم. وتملكت من الناس القسوة بالفعل، فمن كان يلقي عليهم سلامًا غير التحية المعممة، كان يتجاهلونه أو يقاطعونه حتى يعود إلى رشده. وفي أحيان أخرى كانوا يردون عليه بتحيتهم، بنبرة تقع على الأذن كصفعة على الوجه أو بصقة في العين".

ولعل رجل القطن، قد بالغ بعض الشيء في إظهار تأثره بما كنت أخبره به، خاصة وأن تقطيبة جبينه التي لم تناسب تقاطيع وجهه العشريني، بدت مصطنعة. إلا أنني شعرت بصدقه، حين قاطعني في أسى:

"كانت حربًا إذًا! مخيف جدًّا أن تتحول كل تحية إلى معركة".

اتضح لي أن فهم خلفيات المسألة لم يكن بالصعوبة التي تصورتها. ففي الحقيقة، هنا أيضًا، وغالبًا في أي مكان آخر، لكل تحية وكلمة تاريخها الدموي، وكل تفصيلة يومية هي معركة. لكن يبدو أن الناس هنا أهدأ، فهم لا يستغرقون في تلك المعارك التافهة إلى الحد الذي نستغرق نحن فيها. وبمعنى آخر هم يختارون معاركهم. وربما لا يتعلق الأمر بالحكمة، فلديهم وفرة في أشياء أخرى، لا تتوفر عندنا. وهي جديرة بكل طاقتهم وكافية لتفريغ غرائز الصراع لديهم.

"نعم كانت مجزرة، ذبحت فيها كثير من التحيات وخربت علاقات جيرة وزمالات وقرابات. والمريع أن تحية تلقي بالسلام ومن أجل السلام وباسم

السلام تحولت في الواقع إلى صيحة للحرب. وانقسم الناس لجيشين على خطوطها، واحدًا لتحية الإسلام، وواحدًا كان شعاره الدين لله والتحيات للجميع. لكن حرب السلامات الأهلية لم تستمر طويلًا، وسرعان ما حُسِمت، وإن تركت جراح غائرة لا تندمل. ففي كل مرة كان علينا نحن المهزومين أن نقول سلام عليكم أو عليكم السلام، كانت ذكرى الهزيمة ومرارة الانسحاق تعذبنا، فقط لأننا نعلم أننا نقولها مرغمين. ولم يكن هناك أسوأ من نظرات الشماتة التي كان يرمقنا بها المنتصرون مع كل تحية".

كانت، قامة الرجل الطويل قد تقوست قليلًا وهو يستمع لي. ولعله ظن أنه بذلك يتعاطف معي. وأضاف إلى انحنائه نظرة حزينة توحي بالشفقة، بينما كان يعتذر لي:

"فهمت، أنا آسف، لم أقصد بالطبع أن أذكرك بهذه التروما، ربما تحتاج مساعدة نفسية أو شيئًا من هذا القبيل".

فاجأني ما قاله هذا الأحمق. ففي النهاية ها هو لم يفهم شيئًا على الإطلاق. كالعادة الناس من أصحاب الألوان الداكنة، وهم سريعو الغضب بالضرورة طبعًا، يحتاجون علاجًا. بشكل أو بآخر لدينا فيروس يحتاج تدخلًا طبيًا. لم يفهم أي شيء. كنت أريد أن أصرخ في وجهه بأنه لو قال لي "هاي" مثلما يُحيي أي شخص آخر، ودون استعراض لمعارفه التافهة عن التحيات العربية، لكان وفر علينا هذا الموقف المحرج كله. لكن لم يكن هناك داعٍ للصراخ، لأنه سيؤكد وجهة نظره. ولذا تظاهرت بمجاراته، من باب العبث لا أكثر.

"نعم فعلت ذلك، ونصحتني معالجتي بأن أستمع إلى أغنية مطلعها: "صباح الخير يا دنيا، جود مورنينج، بنجور" عدة مرات عند استيقاظي كل يوم" . (وهي في الحقيقة أغنية أطفال مصرية، لا زلت أحبها وأرددها لنفسي في الصباحات التي يثقل عليَّ فيها الاكتئاب).

ولم يفهم هو أنني أسخر منه. وسألني بنبرة هي خليط من الاهتمام والتفهم عن فعالية العلاج، ولم يكن أمامي فرصة للتراجع. بالطبع ليس من الشهامة السخرية من شخص لا يفهم أنك تسخر منه، وخاصة إن كان حسن النية. لكنه لم يعطني فرصة. وبعد لحظة من التردد، قلت له ببهجة حقيقية:

"كان له مفعول السحر يا صديقي. بلا شك أنا قطعت شوطًا طويلًا في رحلة التعافي" .

وكدت أن أنطلق في ترديد الأغنية له، خاصة وأن الجزء الخاص بـ"ردي علينا يا دنيا، وقولي صباح النور" كانت تتراقص في ذهني بإلحاح. إلا أنه قاطعني، وأعفى نفسه وأعفاني من المزيد من الإحراج. فرجل القطن كان قد استمع إلى حواري مع موظفة المكتب الضيق، وعرف أنها صرفتني بغلاظة دون أن تمدني بأي معلومات عن الجثمان الذي جئت أسأل عنه. وهو لحق بي إلى خارج المستشفى ليعرض مساعدته قائلًا:

"اسمع الجثمان سيخرج غدًا لا محالة للدفن، لا يمكن أن يحتفظوا به هنا أكثر من هذا" .

قال لي ذلك هامسًا، وهو يتلفت حوله في قلق. ولم أفهم في البداية إن كان بالفعل خائفًا من أن يفتضح أمره، أم أنه يظن أن تلك الحركات تكسب حديثه أهمية خاصة. ويبدو أنه شعر ببعض المهانة حين سألته إن كان متأكدًا مما يقوله، فسرعان ما ارتفعت نبرة صوته بشكل ملحوظ، حتى إن امرأة على كرسي متحرك، كانت خارجة من بوابة المستشفى التفتت إليه بانزعاج، ونظرت بتأفف من صوته العالي بلا داعٍ.

"مئة بالمئة، هناك نظام صارم بخصوص هذه الأمور. فمنذ أن اخترعت الثلاجات تحديدًا، كان من اللازم وضع قواعد محكمة لمدد حفظ الجثامين في المستشفيات، وجداول زمنية لدفنها أو التخلص منها. تعرف، يمكننا أن نحتفظ بالموتى داخل الثلاجات إلى الأبد، دون أن يتحللوا. وهذا خطير جدًّا، فربما اختلط على الناس أمر الخلود والفناء، ولأصبح من الصعب على الأحياء نسيان موتاهم. ثم إن التكلفة عالية، وأنت تعرف أن سياسات التقشف الحكومية هذه الأيام تفرض قيودًا على ما يمكن أن نفعله هنا في المستشفيات للموتى وللأحياء سواء بسواء".

وعلى الرغم من لمعة الجنون التي ظهرت في عيني رجل القطن، وهو يتكلم عن الدور التاريخي لظهور الثلاجات، فإن هناك شيئًا ما دفعني للثقة فيه. وتأكدت ثقتي بعد أن سألته عما سيحدث للجثة. فإجابته كانت منمقة ومقنعة بشكل مرضٍ. بما أن أحدًا لم يطالب باستلام الجثة حتى تاريخه، فقسم الخدمات الاجتماعية سيتولى التصرف فيها. وبحسب ما أخبرني فإن

القسم يعتني بالأشخاص غير القادرين على رعاية أنفسهم، يتساوى في هذا الأطفال والمسنون والمرضى العقليون مع الأموات بالطبع. وهم يفعلون ذلك، بالأخذ في الاعتبار مصلحة الشخص موضوع الرعاية، والمصلحة العامة. وهذه أمور تحددها دائمًا الميزانية المتاحة. وبلا شك فإن مصلحة المجتمع تكمن في دفن الجثة بأسرع وقت ممكن وبأقل النفقات. أما مصلحة الميت فلا طريقة لمعرفتها في مثل تلك الظروف. ولا مفر من الافتراض بأن مصلحة الجماعة هنا تطابق مصلحة الفرد. وهناك مقبرتان فقط في الحي، يضمان قسمًا إسلاميًّا، وهو سيعرف، بنهاية اليوم، إلى أي منهما سيتوجه الجثمان، وفي أي ساعة تحديدًا، ووعدني بأنه سيعلمني بالتفاصيل على أن أحفظ الأمر سرًّا بيننا. وشعرت بالامتنان الحقيقي له، وببعض الذنب أيضًا من استهانتي به، والسخرية منه.

"شكرًا جزيلًا، أنت فعلًا في منتهى اللطف. سامحني إن كنت خشنًا قليلًا معك. أنا فقط لم أفهم سر اهتمامك بموضوع الفراعنة، وشعرت أنه مبالغ فيه قليلا".

وفي الأغلب، أنه فهم محاولتي هذه للاعتذار، كرخصة للعودة إلى موضوعه الأثير، مضيفًا إلى حماسته نبرة إلقاء مسرحي، وهو يقول لي:

"ليس هناك سر. الماضي فقط أكثر رأفة من الحاضر، وكلما كان أبعد، كان أفضل. أعتقد هذا ما كان في ذهنهم حين بدأوا في تدوين التاريخ. فقط أرادوا أن يشغلوا الناس عن بؤس حياتهم. هل يمكن أن تفكر في سبب آخر

لقراءة كتب التاريخ؟ أو أي فائدة أخرى من أقسامه في الجامعات؟"

نجح رجل القطن في إدهاشي مرة أخرى. فهو ليس أحمق بالمرة. ولذا حاولت أن أقول شيئًا يدل على الحكمة أنا أيضًا، وقلت له، بنفس طريقته المسرحة:

"لعل التاريخ كثلاجات للموتى تحتفظ بالجثامين لمدة أطول من اللازم. وربما الغرض منه أنه يوحي للناس بأن خلودهم ممكن، وأن التاريخ سيكافئهم على ذكرى أفعالهم الحسنة، أو أن الموت لن يعفيهم من العار إن أخطؤوا في حياتهم. تعرف! التاريخ هو أبدية المؤمنين وغير المؤمنين على الأرض".

ولم يبدُ أن ما قلته قد أثار حماسه، بل ظهر على ملامحه بعض الضيق. فربما شعر بالتهديد من عمق الفكرة التي طرحتها، أو لعله أحس بالمهانة لأنني تجاوزته وتكلمت في تخصصه، أي ثلاجات الموتى. وكان ذلك كله واضحًا في الطريقة التي أشاح بها بيده بعيدًا، وهو يحول مجرى الحديث:

"ممكن جدًّا، المهم، هل تعرف كتاب الموتى؟"

الآن هو يريد أن يثبت أنه يعرف أكثر مني عن بلدي، هذه لعبة رخيصة ومللت منها، وكنت جاهزًا برد يدعي المعرفة:

"قرأت فقرات منه في الماضي، لكن لا أذكر أيًا منها الآن".

لم تكن محاولتي ناجحة بأي حال، فهو سألني وفي عينيه نظرة تنمر لم يخفها:

"هل تعرف أن له اسمًا آخر مختلف تمامًا؟"

قررت أنه لا داعي لتلك الألاعيب الصبيانية، هنيئًا له بالفوز، هززت كتفي وقلت له في استسلام:

"ليس لدي فكرة".

ومرة أخرى عاد للهمس وتلفت حوله، وكأنه يخبرني بسر خطير، حين قال:

"اسمه تعويذة للمجيء الوشيك نهارًا".

كانت هذه أول مرة أسمع مثل تلك المعلومة. وهذا ليس ذنبي بالطبع، فهم لم يدرسوا لنا تلك الأشياء في المدارس. *وظننت أنه يقصد أن لا يمكننا التأكد من الأسماء الحقيقية للأشياء، أو أن نكون متيقنين من الماضي تمامًا.* وخطر لي *أنه ربما يعني أن للتاريخ أكثر من رواية. ولكي أتأكد، سألته عما يعنيه. لكن إجابته كانت مخيبة للآمال. فهو بدا لي صادقًا تمامًا وهو يرد على سؤالي:*

"لا شيء محدد، فقط خطر لي أن المصريين القدماء كانوا شاعريين جدًا. أليس عنوان الكتاب شاعريًا!"

عادت أمارات البلاهة إلى وجهه فجأة، أو كهذا تصورت على الأقل، وحاولت أن أتظاهر بأنني في عجلة من أمري وأنا أنظر في ساعتي وقلت له دون اهتمام، وباقتضاب متعمد:

"ملاحظة جيدة! اعتقد أنه عليَّ الانصراف الآن".

ولم يكن الفرار منه بمثل تلك السهولة التي تصورتها، فنحن لم نكن حينها قد اتفقنا على الطريقة التي علينا التواصل بها. واقترح هو أن نتبادل أرقام هواتف العمل. فلسبب ما قال إنه يفضل ألا نتبادل أرقامنا الشخصية. وبدا ذلك مناسبًا لي أيضًا. وكان الأمر سيحتاج دقيقة أو اثنتين، فهاتفي الجوال كان مغلقًا، منذ الصباح تحاشيًا لمكالمات كايودي. وكان عليَّ أن أغامر بفتحه لأسجل نمرة هاتف قسم ثلاجات الموتى. وانتهز هو نصف الدقيقة التي يحتاجها فتح التليفون، ليكمل أسئلته وحديثة العجيب، الذي استمر لنصف ساعة أخرى. وبالرغم من أنني لم أكن مهتمًا على الإطلاق بما كان يقوله، فإنه لا مفر من الاعتراف بأنه أضحكني عدة مرات. وأكثرها إضحاكًا حين سألني إن كنت أعرف على أي هيئة كان الإله رع عندما خلق البشر وصور الحياة الأخرى على الأرض، وبالطبع لم يكن لديَّ أدنى فكرة، وكانت الإجابة أبعد عما يمكن أن أخمنه. فأنا ظننت أن رع ربما كان على هيئة ثور أو نسر مثلًا. إلا أن رجل القطن أخبرني وهو يكاد يتهالك من فرط الضحك، أن كبير الآلهة كان على هيئة إوزة حين خلق العالم. وكرر تلك المعلومة عدة مرات، غالبًا لأن تكرارها كان يزيد من ضحكه. وتمالك نفسه للحظة ليقول لي إن قدماء المصريين كانوا مسخرة. وهو كان محقًا طبعًا.

وخطر لي لحظتها أن التاريخ مضحك جدًا في معظمه، وأن الهدف منه أن نرضى عن أنفسنا وما لدينا الآن، بالنظر إلى الماضي. وقاطع هو فكرتي

تلك، وأعطاني رقم هاتف العمل. وسجلت الرقم وأعطيته أنا رقم الموبايل، وبدا أن كل شيء قد تم بيننا وأن لقاءنا وصل إلى نهايته.

"هل تعرف ما هي أسوأ شتيمة عند الفراعنة؟"

كأنه ما زال قابضًا على يدي، التي مددتها إليه بسلام الوداع، حين سألني سؤاله الأخير هذا. وهززت كتفي بقليل من التململ، وكان واضحًا أنه لم يكن ينتظر مني إجابة. فملامحه اكتست فجأة بالجدية، وهو يقول لي إن أقذع سبة وجدوها في أوراق البردي هي:

"يا صاحب الضريح الفارغ".

الفصل السادس

الإنجليز في غاية المهارة، فهم قادرون على بيع أي شيء. باعوا الأفيون مثلًا للصينيين، واشتروا منهم الشاي. وزرعوا الشاي عند الهنود، وباعوه لهم بعد ذلك، هو والأفيون. ثم أصبح الشاي نفسه إنجليزيًّا، ومعظم الأشياء الأخرى أيضًا. وهم يقولون عن أنفسهم، نحن أمة من أصحاب الدكاكين. وهذه عبارة بالإضافة إلى دقتها فإنها تكشف عن فضائل التواضع الساخر والاعتداد بالنفس التي تلزم أي تاجر. وبالطبع، ومنذ وقت طويل، توقف اعتماد الإنجليز على تجارة المكيفات، بعد أن أقنعوا العالم كله بشرب الشاي. وفي هذا فإن خالتي هيلانة كانت محقة تمامًا. فحين كان جيرانها القرويون يسخرون من هوسها بأخبار السياسة البريطانية، "فاكرة نفسك إنجليزية إياكي؟"، كانت لا تقول الكثير، فقط ترفع خمسينة الشاي، التي لا تبارح يدها، في وجوههم وتقول "كلنا". ومن ثم تشير بإصبعها في تنمر، إلى التفل

المغلي في القاع. وكان هذا كافيًا ليفهموا مقصدها، وينكسوا رؤوسهم. وخالتي كانت تقول إن سبب نجاح الإنجليز لم يكن أنهم باعوا الشاي بربح كبير، بل إنهم علموا الناس المزاج وخاضوا حروبًا من أجله. والمزاج فكرة والكيف عادة، وتجارة الأفكار أربح من أي شيء آخر.

وهي تعرف بالتأكيد عن الإنجليز أكثر مما أعرف، بالرغم من إقامتي الطويلة هنا، إلا أنني نادرًا ما وجدت فرصة للاختلاط بهم. وحين قابلت بعضهم، كانوا مختلفين تمامًا عن الإنجليز الذين قرأت عنهم في الكتب أو شاهدتهم في الأفلام. فكان بعضهم لا يحب الشاي على الإطلاق، ولم يسمع بحرب الأفيون أيضًا. وبالتأكيد لا يجب على المرء أن يكون من السذاجة ليظن أن الأفلام والكتب هي مرآة للواقع. لكن بلا شك من المتوقع أن معظم الناس تضبط سلوكها لتتوافق مع الأفلام الناجحة والكتب ذائعة الصيت. ولا أعتقد أن الإنجليز استثناء من ذلك، لكن يبدو أن "قصة مدينتين" التي درسناها في مقرر المرحلة الثانوية كانت قديمة بعض الشيء.

والإنجليز _على الأقل الذين في الكتب_ أذكياء فعلًا، فحين يبيعون شيئًا، يجعلونه متاحًا لفحص الزبون، وتذوقه أولًا.

عندما وصلت إلى بريطانيا لأول مرة، كان أكثر ما كنت أتطلع إليه هو مشاهدة واحدة من أقل سلعهم رواجًا، وأعلاها تقديرًا. فقد قرأت، في مراهقتي، إنه لو شاء المرء أن يرى حرية التعبير بعينيه، فعليه أن يذهب إلى "ركن الخطباء" في حديقة هايد بارك. وصلت إلى مطار هيثرو في ليلة

سبت، وصباح الأحد كنت في الهايد بارك، ومبكرًا جدًّا. ولم أكن في الحقيقة مهتمًّا بمعاينة حرية التعبير نفسها. فأنا أعرف ما هي _على الأقل نظريًا_ حتى لو لم أرها أمامي. إنما اهتمامي كان مركزًا على شيء آخر، الطريقة التي ينجح من خلالها هؤلاء الملاعين في تحويل كل المجردات إلى أشياء يمكن معاينتها ولمسها، ويحددون لها مكانًا على الخريطة يمكن الوصول إليه، وميعادًا أسبوعيًّا يمكن متابعته. فغالبًا هذه واحدة من أسباب نجاحهم في التجارة، أي تحويل كل فكرة إلى شيء قابل للقياس والمعايرة، ولاحقًا تسعيرها.

تهت قليلًا في الطريق إلى هناك، لأن "هايد بارك" كبيرة كغابة في وسط المدينة، ومداخلها ومخارجها تفتح على أحياء بعيدة جدًّا بعضها عن بعض، ولكن تبدو جميعًا متشابهة. والناس الذين استفسرت منهم عن الاتجاهات لم يعرفوا على وجه التحديد أين توجد حرية التعبير، واندهش بعضهم جدًّا من السؤال. فعلى ما يبدو أن أمر الحريات عمومًا أصبح مسلمًا به أكثر من اللازم هنا، حتى نسيه الناس، أو فقدوا اهتمامهم به.

وبعد ساعة أو أكثر من اللف في دوائر، وصلت إلى المكان الصحيح، وكان ركنًا فعلًا، لكنه كبير، ويحده سياج من الشجيرات متوسطة الطول تحجبه عن الرؤية. وأعجبت فعلًا بفكرة أن يكون لكل حرية ركن مخصص لها، فليس هناك أفضل من النظام.

ومن الخارج كان يمكنني أنا أرى عددًا قليلًا من الخطباء، وكان معظم

الحضور سائحين آسيويين، يمرون على عجل بين متكلم وآخر لالتقاط الصور، دون استماع. وبمجرد أن خطوت إلى داخل الركن، استقبلني شاب يحمل يافطة صغيرة، مكتوبًا عليها، "حضن مجاني"، وكان يوزع فعلًا الأحضان بكثير من الهمة على الداخل والخارج.

وشعرت نحوه ببعض الشفقة، واعتقدت أنه يفعل ما يفعله بدافع من الوحدة الشديدة، فلا يوجد تفسير آخر. لكنه أخبرني بأنني كنت على خطأ، فهو بأحضانه ينشر السعادة بين الناس مجانًا. واقتربت منه لأعطيه ضمة صادقة ومفعمة بالدفء، فهذا كان الحضن الأول لي في لندن. إلا أن الشاب لم يظهر أي امتنان على الإطلاق، وضمني ضمة سريعة وآلية، قبل أن ينتقل لزبون آخر ويكرر نفس الشيء بابتسامة باردة. وأحزنني هذا للحظة، لكنني تجاوزت خيبة أملي بقليل من العقلانية، فالأمر ليس شخصيًا بالتأكيد، فهو يوزع مئات الأحضان يوميًا، ولا بد أن يكون هذا مرهقًا جدًا. ثم أن فكرته عن السعادة في غاية السذاجة، ولا يمكن توقع الكثير منها خاصة وهي توزع مجانًا، فالغالي دائمًا ثمنه فيه.

وبعد خطوات قليلة، وقفت للاستماع إلى رجل بدا من هيئته أنه في سن المعاش، كان يقف على صندوق خشبي، ويحمل إنجيلًا في يده. كان حديثه موترًا بعض الشيء، فكان يلوح بقبضته في الهواء ويصرخ بشكل عصبي جدًا، لا يتحمله الموقف. وتطاير الرذاذ من فمه كزخات من الطوب، وهو يحذرنا من العذاب الذي ينتظر غير المؤمنين. ولم يقل شيئًا جديدًا لا أعرفه، أو

ما يحتمل الجدل، فلقد كان مقتنعًا تمامًا بما يقوله، كما يجب أن يكون المؤمنون. شعرت بالملل بعد أقل من دقيقتين. وانتقلت إلى الخطيب التالي، على بعد أمتار قليلة من الأول، كان واقفًا على صندوق أيضًا، ويقول كلامًا مشابهًا جدًّا، وبنفس الانفعال، وبكثير من الرذاذ. ولكن الفرق الوحيد أنه كان يحمل قرآنًا تحت إبطه. هو أيضًا لم يقل شيئًا لا أعلمه، أو ما يحتمل أن يجادله أحد فيه. وشعرت بالملل بعد دقيقتين هذه المرة أيضًا.

وباستثناء شاب، بلكنة أمريكية، كاد أن يقنعني بالهجرة إلى فنزويلا للعيش في تعاونية اشتراكية هناك، (والحمد لله أنه لم ينجح)، فإن الجميع كانوا يحملون كتبًا مقدسة، ويكررون كلامًا متشابهًا عن الموت والعذاب الذي ينتظرنا بعده. ولم يبدُ أن أحدًا بينهم جدير بالانتباه سوى رجل أسود قصير القامة، كان يرفع علمًا عليه نجمة داود إلى جانبه. وأحاطه زحام لا بأس به من المتفرجين وبعض الجلبة، ولذا احتجت بضع دقائق حتى تبينت ما يقوله بوضوح. كان يروي بحماس شديد قصة موسى وفرعون، ويعدد الضربات العشر على مصر واحدة واحدة، وكانت طريقة إلقائه مقنعة ومسلية، وصوته مملوءًا بغضب غير مفهوم لكنه صادق، من النوع الذي لا تملك سوى التعاطف معه. كنت في الصف الثالث أمامه، وتلاقت أعيننا، فأطال التحديق في وجهي، ولسبب ما تغيرت ملامحه فجأة وبدأ في الصراخ بأعلى صوته، داعيًا جمهوره للوقوف بجانب إسرائيل، في وجه العرب الذين استعبدوا شعب الرب في الماضي. ولحظتها وجدت نفسي أضحك

على ما يقوله في سري وأخجلني ذلك من نفسي، فلا ينبغي السخرية من حرية التعبير بالتأكيد.

وحاول واحد من الجمهور مقاطعته متهكمًا، "لكن الفراعنة ليسوا عربًا!" إلا أن الرجل القصير والواثق من نفسه تجاهله تمامًا، وطفق في لوم العرب على استعباد الأفارقة، واتهمهم بأنهم كانوا يخطفونهم ويبيعونهم للأوروبيين. وبشكل أو بآخر، توصل إلى أن العرب كانوا وراء كل الشرور في العالم، فعبودية السود في أمريكا خطأ العرب، والأبارتهيد في جنوب إفريقيا ذنبهم، بل ووصلت الوقاحة به إلى أنه ادعى أن الأوروبيين لم يعرفوا العبودية حتى تعلموها من المسلمين. وقاطعة الرجل نفسه مرة أخرى، وبصوت أعلى من السابق: "الرومان كان لديهم عبيد وكانوا يلقونهم أحياء للأسود". وتجاهله خطيبنا تمامًا، كالمرة الأولى، وتظاهر أنه لم يسمع شيئًا. وأدهشتني ردة فعلي جدًّا، فأنا بطبعي خجول، وأتجنب الحديث في الأماكن العامة. ولم يغضبني كل ما قاله الرجل من مغالطات، لكن تجاهله للرأي الآخر، وبكل هذا الصلف، وهناك تحديدًا، كان أكثر من أن يحتمل.

وجدت نفسي أزيح الجمهرة الصغيرة الملتفة من حول الرجل، متخطيًا صفين من المستمعين، حتى وصلت إلى مقدمتها، ووقفت أمامه مباشرة. وسكت هو، وبحلق في وجهي، متأهبًا لما أنوي فعله. وخيمت لحظة من الصمت الثقيل، كنت قادرًا على أن أسمع صوت توترها في أنفاس من حولنا. ولم أعرف لماذا أقدمت على ما فعلته، وما الذي يجب عليَّ قوله.

وكنت على وشك أن أدور على أعقابي وأغادر المكان كله، لولا أن غريمي صرخ في وجهي: "ماذا تريد؟"

ولم أدرِ سوى وأنا أقول له بصوت قاطعته لجلجتي:

"صحيح العرب استعبدوا السود، لكن استعبدوا البيض أيضًا".

ولم يكن واضحًا ما الذي أوحى لي ساعتها بهذه الفكرة النيرة، وشعرت بالفخر لحظتها بسرعة بديهتي، وأضفت بنبرة أكثر ثباتًا:

"كانوا يخطفون البيض ويبيعونهم مثل السود".

وأنا كنت أكذب بالطبع وعن وعي، فأنا أعرف أن استعباد الزنج كان غير استعباد المماليك بالتأكيد. فهؤلاء كانوا للخدمة والآخرون للحكم. إلا أن الدرس الأول الذي تعلمته عن حرية التعبير، ساعتها، ومن واقع الممارسة، هو أن نصف الحقيقة أفضل من الصمت بالتأكيد. ولا أعرف لماذا ظننت أن ما قلته منصفًا، إلا لأن المساواة في الظلم عدل، أو لأن بعض أنصاف الأكاذيب أكثر صدقًا من النصف الآخر منها. وظهر أن غريمي قد فهم نقطتي، بوضوح، وإن لم يعلق عليها، وتجاهلني تمامًا، وتراجع خطوة للوراء وعاد لاستكمال خطبته كأن شيئًا لم يحدث. ولمحت في عينيه لمعة من الرضا عما قلته، وربما الشماتة في هؤلاء العبيد البيض الذين جئت على ذكرهم.

ويومها رجعت إلى البيت مغتمًا على الحال التي وصلت إليها حرية

التعبير في هذا البلد، وانقطعت عن التفكير فيها لعدة سنوات. وكنت أظن إنني لن أعود إليها البتة، حتى حدث ما حدث. فعندما نزل الناس في مصر إلى ميدان التحرير، وشاهدتهم بالصدفة على شاشة تليفزيون كبيرة جدًّا في فاترينة أحد المحلات في شارع أوكسفورد. بعدها بيومين عرفت أن بعض الناس هنا تتضامن معهم أمام السفارة المصرية، وقررت أن أنضم لهم. ولأكون صادقًا، لم أكن يومًا معنيًّا بالسياسة في مصر، أو في أي مكان آخر. ولطالما توجست من كلمة التضامن، وظننت فيها كثيرًا من التعالي، أو في أفضل الأحوال محاولة لإبراء الذمة تتميز بالكسل. وأنا أفضل أن أفعل الأشياء بقلب كامل، أو ألا أفعلها على الإطلاق. ولذلك نادرًا ما أفعل شيئًا. لكنني وجدت المناسبة فرصة، لا يجب تفويتها لممارسة حرية التعبير أخيرًا، حتى ولو من باب التضامن. فليس أجمل من عمل الأشياء لذاتها، ودون غرض من ورائها. أو كما يقول فريد الأطرش: الحب من غير أمل أسمى معاني الغرام.

وحين وصلت أمام السفارة لأول مرة، كان هناك عدد لا بأس به، حوالي خمسين متظاهرًا، تحيطهم ثلاثة أضلع من حواجز المرور المعدنية التي وضعتها الشرطة. كان المشهد مصممًا ليبدو كركن، وهذا ما دفعني للظن بأن هناك علاقة في هذا البلد بين الأركان وحرية التعبير ليست بالضرورة قانونية ولكن على الأقل من باب العرف أو الذائقة الجمالية. كان البعض يهتف بقليل من الحماس والبعض الآخر يتهامسون فيما بينهم عما قد يحدث

في الغد، ووقفت شرطيتان بريطانيتان على مقربة منا وعلى وجهيهما ابتسامة ثابتة ونصف مصطنعة.

وبعد قليل، ودون مقدمات انفتح باب السفارة فجأة وخرج منه رجل ظهر من هيئته أنه أحد موظفيها ذي المرتبة المتواضعة، في يده كوب من الشاي ووقف جانبًا يدخن سيجارته. وسرت لحظة من الصمت الحذر، وبعدها ارتفعت حمية الهتافات وطغت موجة من الحماس في أصوات المتظاهرين عند رؤيته ينفث أول نفس من سيجارته. وظهر على وجه الموظف الصغير أنه كان مندهشًا من وجودنا، وفي عينيه علامات من الحيرة. كان يتطلع إلينا بفضول طفولي بين رشفة وأخرى من كوبه. ومن المخجل الاعتراف بأن ظهوره المفاجئ واختفاءه الغامض داخل السفارة بعد أن انتهى سريعًا من تدخين سيجارته، كان هو الحدث الأكثر إثارة في اليوم كله. انقسم المتظاهرون إلى فريقين بشأنه، فمعظم المصريين ممن وصلوا إلى البلاد قبل عدة سنوات فقط من أمثالي ظنوا أن الرجل لا ذنب له في شيء وأنه مجرد موظف، لا حول له ولا قوة. أما الفريق الثاني، وضم بعض الأجانب، والمصريين ممن ولدوا هنا _وهؤلاء ظهورهم مستقيمة وأكتافهم عريضة وتنضح خدودهم المحمرة بالصحة لسبب ما_ فكانوا حانقين جدًّا عليه. فلقد ألقى بعقب السيجارة على الأرض ودهسها بجزمته. وكانت هذه إساءة لصورة مصر في الخارج. وحدث جدل ساخن بين الفريقين، وتعالت أصواتهم، وكاد الأمر أن يتحول إلى اشتباك بالأيدي، لولا تدخل واحدة من الشرطيتين للفصل بين المتخاصمين.

ولم تهدأ الأمور سوى بعد أن قام أحد الشباب صغار السن، من أصحاب الظهور المفرودة، بالقفز فوق أحد الحواجز المعدنية التي تحيط بالمظاهرة، وتقدم بخطوات ثابتة نحو السفارة، واقترب جدًا من بوابتها، بينما كتم الجميع أنفاسهم، وانحنى على الأرض ببطء والتقط عقب السيجارة ثم وضعه في أقرب سلة للقمامة. وصفق له البعض بابتهاج، ونظرت الشرطيتان لبعضهما في رضًا، وضحكتا.

وللأسف لم تكن خيبة أملي هذه المرة أقل من السابقة الأولى في هايد بارك، ففي منتصف المظاهرة، اكتشفت أن الحريات مملة جدًا. وأنه لا متعة في ممارستها، إن لم تتضمن قليلًا من المخاطرة أو بعضًا من العواقب في حدها الأدنى. وحسدت الناس في مصر، فلديهم قناصة فوق المباني، ودبابات في الشوارع، وجمال تهاجمهم في الميادين، وطائرات إف 16 تحلق فوق رؤوسهم، وسيارات بأرقام دبلوماسية تدهسهم فوق الأرصفة، وخيارات واسعة من المغامرات وأسباب متعددة للبطولة. لكنني كنت أجبن من أن أعود إلى القاهرة.

لكن الفلسفة هي ابنه خيبة الأمل كما يقولون، والحكمة أحيانًا تكون قرينة الجبن وتوأم الحسد، فقد توصلت لشعار يلخص خبرتي هذه، وفيه الكثير من العمق. وفي مرة قلته لأحد المتظاهرين الواقفين بجانبي، فأعجب به جدًا. واغتبطت حين بدأ هو في الهتاف به والجميع وراءه: "مفيش حرية من غير قمع... مفيش حرية من غير قمع".

واستمرت الوقفات أمام السفارة، في نهايات الأسبوع، لشهور بعد ذلك، ولأسباب مختلفة. ولم يكن حضوري بدافع الواجب ولا المتعة، بل الحرج. فقد تعرفت على عدد ممن ينظمون تلك الفعاليات، وكانوا لطافًا جدًّا معي. ولم أرد أن أخيب ظنهم بي. فالجميع أصبح يعتمد عليَّ لتأليف الهتافات الجديدة والحماسية. ولم تكن مهمتي صعبة على الإطلاق، فكنت أقوم بمزاوجة بعض الأضداد، كالعدل والظلم أو الكرامة والعدل، وأضع "مفيش" قبل الأولى المرغوبة، و"من غير" قبل الثانية المذمومة. والنتيجة كانت دائمًا مبهرة، ومعبرة بشكل كبير. وإن كان لديَّ بعض الشكوك في أن عددًا من الناس لم يفهموا معنى الشعار بدقة، وكانوا يعكسون ترتيبه أثناء الهتاف على سبيل الخطأ.

واظبت على الحضور، إلى أن حدث ما حدث في ماسبيرو، وشعر كثيرون غيري حينها أن ما نفعله بلا معنى، وربما يتضمن بعض الابتذال أيضًا. ومن الكرامة أحيانًا أن يعترف الإنسان بعجزه وبعدم جدواه. ولم يكن هناك فائدة من العناد، خاصة وأن موظف السفارة الصغير توقف عن الخروج للتدخين أثناء التظاهرات. ونزع هذا عن الأمر ما كان فيه من متعة. أما شعاراتي فأصبح من الممكن توقعها بسهولة، ولم تعد تحمس أحدًا.

ومرت الأسابيع، ولم يفتقدني أحد، ونسيت فيها ناس السفارة ونسوني. وتوقفت عن متابعة الأخبار في مصر، لأنها كانت تصيبني بالاكتئاب. ومع الوقت توقفت المظاهرات نفسها في لندن أولًا ثم في القاهرة. وبدلًا

من تلك المسائل المقبضة، بدأت في استغلال إجازات نهاية الأسبوع في الذهاب إلى الجيم.

ووجدت هناك تعويضًا عن صدمتي الثانية في حرية التعبير. ففي مدخل الجيم كان هناك يافطة كبيرة تقول بالإنجليزية: "لا مكسب، دون ألم". وكان وقع الشعار مألوفًا جدًا، وذهبت إلى أحد العاملين في المكان، وكان شابًا طويلًا ومفتول العضلات ويرتدي زيًا رياضيًا فسفوريًا، وعلى صدره شارة تقول "مدرب شخصي". واستعلمت منه عن مؤلف الشعار. وأخبرني بأنه لا يعرف، وأنه غالبًا لفيلسوف مجهول. فالعبارة شائعة جدًا، ومتداولة منذ زمن بعيد. وأحيانًا ما يطغي فرط الرواج على صاحبه، فيمحوه من التاريخ، ويخلد مقولاته. وأعجبتني فكرة أن يكون الإنسان ضحية نجاحه وأن تكون حكمته هي غريمه. ونصحني الرجل المفتول، بالاعتدال في كل شيء، الألم والمكسب، وأضفت أنا له النجاح. وبدا كلام الرجل عميقًا بما يكفي، فالمدربون الشخصيون هم حقًا معلمو هذا الزمان وحكماؤه في شؤون تهذيب الجسد وتشذيب الروح. ولذلك أخبرته بشعاراتي السياسية، وكيف أؤلفها. وهو أمن على كلامي، مؤكدًا على التشابه بين شعاراتي وشعار الفيلسوف المجهول، وقال لي بأن جوهر السياسية هو نفسه جوهر التدريب، وأن الجيم كالحياة، أو العكس، لا أذكر بالضبط.

ومع الوقت، ظهر لي أن الجيم كالسياسة فعلًا، لكنها مقلوبة رأسًا على عقب. فحين كنت أتمرن على جهاز الجري، وأنظر أسفل قدميَّ إلى

السير المتحرك، كنت أتخيله كجنزير دبابة مقلوبة على ظهرها وأنا أجري عليها أو منها، وأدهسها بكل غل. وبلا شك فإن ما دفعني للمداومة على التمرين يوميًا، هو أنني وجدت في الجيم تصحيحًا للأخطاء التي تحدث في العالم وعكسًا لمنطقه. ويكفي أن هناك ما يمكن أن تجري عليه وتجري لساعات وتظل في مكانك.

لكن الأمور لم تتوقف هنا. فالنقطة الفارقة، كانت حين فهمت المغزى الحقيقي ليافطة دورة المياه في الجيم. فعلى ظهر كل باب من أبواب كبائن الحمام، من الداخل، شعار خفيف الظل يقول: "كل قرفصة محسوبة". وكانت العبارة في ظاهرها تحفيزية، وغرضها التشجيع على التمرين في غير أوقات الجيم أيضًا وخارجه. وكنت أبتسم عادة كلما أنزلت بنطالي وأنا استعد للقرفصة على كرسي التواليت. لكن من حوالي سنتين وفي مرة من تلك المرات، التي كنت أعاني فيها من الإمساك الشديد بسبب مكملات البروتين الغذائية التي أتناولها، وفيما كنت أدفع بكل ما أوتيت من قوة لأفعل كما يفعل الناس، وفي لحظة المعاناة المكثفة تلك انكشف أمام عيني المعنى الحقيقي، والمخفي عن الكثيرين.

كل قرفصة محسوبة، كل خطوة في الخارج، كل حركة في المكتب أو البيت، كل شهيق يدخل الصدر، كل سعر حراري نأكله، وكل زفير يخرج من أفواهنا، وكل مرة نمارس فيها الجنس، وكل سلمة نصعدها، وكل سُعر نحرقه لأي سبب، كل شيء، كل شيء فعلًا يجب أن يكون محسوبًا، وبدقة

وبإخلاص. علينا أن نأخذ الجيم معنا إلى العالم، وأن يصبح جزءًا من كل تفصيلة يومية، ورويدًا رويدًا يصبح العالم كله صالة كبيرة للتمرين. وخرجت من الحمام إلى صالة الأثقال، ونظرت حولي، ورأيت كثيرين يشبهونني، ويبدو على وجوههم سيماء العجز نفسها أمام العالم. جميعنا في أخوية واحدة حتى لو لم يتبادل أحد فينا كلمة مع الآخر أبدًا، أخوية لتهذيب الجسد وقمعه. فحين يصبح كل شيء خارج سيطرتنا، وبلا معنى، وحين تدهس الدبابات الناس في الشوارع، ولا نستطيع أن نوقفها، فليس هناك سوى أجسامنا لنتحكم فيها، لنتحداها، ونقسو عليها، ولنهزمها أمام الإرادة، ونتتصر بها على الحديد، ونتغلب بها على الجوع وعلى الشره، ونتباهى بها أمام المرايا التي تحيط بصالات الجيم من كل جانب. وأشعرتني تلك الأفكار بالكثير من الرضا عن النفس، وجدوى ما أفعله بوقتي. فليس على المرء أن يبحث عن معنى لحياته. فهذا مستحيل تقريبًا. إنما الأكثر عملية هو أن يجد جدوى لها. وهذا ما كنت أفعله فعلًا.

ولذا حين سمعت صوت كايودي في التليفون، وبالرغم من أنه كان متهالكًا كما لو أنه يخبرني بنهاية العالم، إلا أنني ابتهجت. فبعد أن انتهيت من رجل القطن، وغادرت المستشفى، تمشيت قليلًا في "وايت شابيل" على غير هدى. ومررت بالسوق المجاور لمحطة مترو الأنفاق، وكانت الوجوه السمراء هناك تبعث على الألفة، والدوشة التي تضج بها فرشات الخضار، والنساء المخمرات الموزعات حولها، ورائحة الكاري، وصناديق السمك

التي يغطيها الثلج ويحوم حولها الذباب، كلها غريبة عني، ومألوفة جدًّا في نفس الوقت، وكأنها تأتي من حلم يمكن تذكر نصفه فقط ويظل نصفه الآخر سرًّا يؤرق اليقظة. وتلاقت عيناي مع رجل مسن بلحية برتقالية فاقعة مصبوغة بالحنة، وظهر من هيئته أنه بنغالي، أو هذا ما ظننت على الأقل. ابتسمت له وهززت رأسي بالتحية، وابتسم بتحفظ وحياني بصوت جاد: "سلام عليكم براذر". وأصابني ذلك ببعض البهجة، تبددت بعد خطوتين. وقادتني قدماي إلى جامع "الكنيسة البيضاء"، وأمامه فتحت هاتفي، ونظرت فيه ووجدت عشرات الرسائل الجديدة من كايودي، وكلها تطلب نفس الأمر. وكان من الواجب مواجهة المسألة، فاتصلت به. وكما توقعت، زف لي أخبارًا سيئة وطلب مقابلتي في الحال، أخبرته أنني متمارض، ولا أستطيع أن أقابله قريبًا من مكان العمل خشية أن يراني أحد من زملائي. لكن يمكنني أن نلتقي بعد الدوام، في أي مكان آخر. تركت له أن يقرر هو الجهة والوقت. واختار كايودي جرينتش أمام المرصد الملكي، الساعة السادسة.

جرينتش، كان هذا ما أبهجني، فالرحلة من البيت إلى هناك تستغرق عشرين دقيقة فقط بالدراجة. مسافة ليست بالطويلة ولا المرهقة، ولكنها تحرق مئة وخمسين سعرًا حراريًّا ذهابًا، ومثلهم في طريق العودة. ثلاث مئة كالوري، كل ما تحتويه علبتان تونة من السعرات، أي أربعين جرام بروتين، كل ما يحتاجه الذكر المتوسط في اليوم من بروتين. مرت تلك

الحسبة في رأسي سريعًا، وبشكل آلي، وطمأنتني إلى أن كل فرفصة محسوبة بالفعل، وأن هناك أسبابًا بسيطة للسعادة. ولم تكن هذه المرة الأولى التي تدور فيها تلك العملية الرياضية في ذهني، فقد قمت بها مئات المرات من قبل. فلا أحد يعرف "بروكلي" التي أسكن فيها، ولا حتى سمع عنها، ولطالما تباهيت بأنني أسكن على بعد ثلث ساعة فقط من جرينتش، الخط المقدس الذي يقسم العالم إلى شرق وغرب، ثلث الساعة من نقطة صفر الزمن، التي تضبط الدنيا كلها ساعتها عليها، عشرين دقيقة فقط من مركز العالم، وهناك كان مكاني المفضل للقاءات والتمشي، وفي كل مرة ذهبت إلى جرينتش، أجريت حسبة السعرات في ذهني وابتهجت.

كانت شمس يوليو الحارقة لا زالت في منتصف السماء، حين بدأت في التبديل على الدراجة، وابتسمت للفكرة السخيفة التي لطالما سليت بها نفسي بين حين وآخر. فأنا لا زلت أسكن في شرق العالم، حتى وأنا في لندن. قطعت ذلك الطريق كله من القاهرة إلى هنا لكنني ما زلت في الشرق. والشرق شرق حقًّا كما يقولون، والغرب يظل غربًا مهما حدث. ولذا فالشمس هنا تلفحنا في أسابيع الصيف القليلة، وكأنها نار جهنم.

لكن حيلتي لتشتيت ذهني عما أخبرني به كايودي لم تنجح سوى لدقائق معدودة، فسرعان ما هاجمتني الأفكار المقبضة، فقد وجدوا جثة السيدة (أ) متفحمة في غرفتها في نفس ليلة اليوم الذي زرناها فيه. وكما أخبرني في مكالمتنا القصيرة، فإن الحريق الذي بدأ غالبًا في غرفتها التهم كل الغرف

في البدروم، وما زال بعض المصابين في المستشفيات. وتم إغلاق النزل بمعرفة الشرطة، وتم نقل كافة النزلاء، وتوزيعهم على محال إقامة مؤقتة بديلة. وقد فتح تحقيق كبير، و لا بد أن الإعلام سيبدأ في تداول القضية على نطاق واسع قريبًا، ولا أحد يعرف إلى أين ينتهي الأمر. وكايودي كان مقتنعًا في مكالمته تمامًا بأن المرأة أقدمت على الانتحار بعد لقائنا بها، وأنه لو حدث وتورطنا، وذُكرت أسماؤنا في التحقيق، فهذه هي نهايتنا. فنحن ضحيتان مثاليتان، اثنان من صغار الموظفين، يسهل تقديمهما ككبشي فداء. وسيشعر بعدها الجميع براحة الضمير، وتعود الأمور إلى مجاريها.

لم يكن واضحًا لي، ما الذي يفكر فيه كايودي، ولا السبب وراء طلبه لقاءنا، فليس هناك الكثير الذي يمكن أن نفعله الآن. لكن المرور المزدحم في الطريق إلى جرينتش، لم يسمح لي بالتفكير كثيرًا في الأمر. كانت الخامسة والنصف، ساعة الذروة بالضبط. ووصلت قبل موعدنا ببعض الدقائق، وكان ذلك وقتًا كافيًا للبحث عن مكان لربط الدراجة، وكنت حريصًا أن أجد مكانًا مكشوفًا، وأن أضع قفلين واحدًا على العجلة الأمامية وواحدًا على العجلة الخلفية، فسرقات الدراجات أصبحت منتشرة جدًّا في لندن ولا تعمر الدراجة أكثر من شهرين أو ثلاثة قبل أن تختفي. ولذا لا يشعر أحد من راكبي الدراجات بالأمان منذ أن بدأت الحكومة في خطتها التقشفية منذ عدة أعوام.

وجدت مكانًا يبعد قليلًا عن المرصد، ووضعتها هناك، ثم تمشيت

بمحاذاة النهر قليلًا. وانزعجت بعض الشيء بسبب الزحام. فالمنطقة وحدائقها الكثيرة كانت ممتلئة على آخرها بالأسر وأطفالها الذين خرجوا للتنزه في يوم مشمس، كهذا. وحين اقتربت من المرصد، لمحت كايودي واقفًا في انتظاري. وكان مبتسمًا كعادته. لوحت له من بعيد، لكن يبدو أنه لم يلاحظني، فالشمس كانت ضاربة في عينيه. واحتاج الأمر بضع ثوانٍ، قبل أن يلاحظني، ويفتح ذراعيه كعادته. وبحرارة سحبني من ذراعي إليه، وضمني وربت على كتفي بقوة كما يفعل دائمًا.

"كيف حالك يا صديقي المفضل؟"

ولم يمنحني فرصة للرد، فلقد قبض على يدي في الحال بقوة، وشعرت وكأنه يعصرها، وسحبني وراءه إلى مقدمة المرصد الملكي. ودون أن يقول شيئًا، تحرك بعض خطوات إلى جهة اليمين، ثم عاد قليلًا إلى اليسار بحركة دقيقة ومحسوبة، وكان ما زال يجرجرني وراءه برفق، وأنا كنت مستسلمًا. وتوقف برهة وكأنه يحاول أن يتذكر شيئًا، ونظر إلى الأرض ليتبين علامات ما كان يبحث عنه. وبعد لحظات، انفرجت أساريره، ولمعت عيناه كمن وجد ضالته أخيرًا وانتصب فاتحًا رجليه على شكل مثلث، تاركًا مسافة أكبر من اللازم بينهما. لم يكن من الصعب تفهم ما يحاول القيام به، لكن الأمر كان عبثًا طفوليًا لا يتناسب لا مع الموقف، ولا مع رجل في سنه.

"تعرف لماذا طلبت أن نلتقي في هذا المكان؟ هنا يمكن أن تضع قدمًا في شرق العالم وقدمًا في غربه. ترى هذه القدم تقف شرق خط جرنيتش،

وهذه في غربه. لندن معتدة جدًّا بنفسها، وأسيادها ظنوا أنهم مركز العالم، وقرروا أن يقسموا الأرض والسماء من هنا، منتهى الغرور. لكن هذا لا يعنينا كما تعرف، فأنا وأنت ومن مثلنا في هذه المدينة دائمًا بين البينين... لا نحن هنا ولا هناك".

كنت متوقعًا أن يسرد كايودي بعضًا من نظرياته العظمى. لكنني لم أستسغ ما قاله، ربما لأن الجو كان حارًّا جدًّا، ولا يحتمل تفلسفًا فارغًا مثل هذا.

"هل أحضرتني هنا لتفرجني على خط الزوال السماوي؟"

استقبل كايودي سؤالي التهكمي، بتقطيبة على جبينه سرعان ما زالت، عادت لوجهه ابتسامته الصبورة.

"لا لا، أنا فقط أعرف أن المكان قريب من سكنك وأنا أحبه، وظننت أنه مكان مناسب للقاء. تصور... هذا أول مكان زرته في لندن، حين وصلت إليها من ثلاثين سنة. هل تعرف أنني في لاجوس درست الجغرافيا في الجامعة! وكان الشيء الوحيد الذي أردت أن أراه في لندن هو الزمن، الخط الرفيع الذي يختفي فيه، وتبتلع فيه الدقائق نفسها. وجئت هنا، وكنت ما زلت شابًّا صغيرًا، نظرت إلى الشريط الذهبي اللون لخط جرينتش المثبت على الأرض في الداخل، ورأيت الزمن راقدًا على جانبيه في استسلام. وشعرت بالفخر والحزن معًا".

سمعت في صوت كايودي، رعشة صادقة من التأثر، ولم أفهم مصدرها.

وأشعرني ذلك ببعض الحرج وظننت أنه من الأدب أن أشاركه بعضًا من ذكرياتي أيضًا، حتى نكون متساويين.

"أفهم تمامًا. حين وصلت، كان ركن الخطباء، في هايد بارك، أول مكان أردت رؤيته، وكان الموضوع محبطًا إلى أقصى حد".

ظننت أنه لم يسمعني، فهو كان يحملق أمامه في الفراغ، ومرت برهة من الصمت قبل أن يلتفت إليَّ، ويقول بصوت متحسر:

"ركن الخطباء! لم أذهب إلى هناك أبدًا، دعنا نجد مكانًا للجلوس على النجيلة".

سحبني كايودي من يدي بعيدًا عن المرصد الملكي، وتمشينا قليلًا في الحدائق المحيطة به، حتى اختار هو بقعة للجلوس بالقرب من شجرة ممتدة الظلال، واقترح أن نتمدد على الخط الفاصل بين ظلها وبين الجزء المشمس، حتى نحافظ على وضعنا بين البينين كما قال وهو يضحك. ولم أمانع. وضع حقيبة اليد التي كان يحملها على النجيلة، وجلس عليها حتى لا يتسخ بنطاله، والتفت لي وظهرت على ملامحه جدية لم أرها من قبل على وجهه المبتسم.

"حسنًا، لندخل في الموضوع، المرأة انتحرت وإذا استدعينا أنا أو أنت إلى أي تحقيق، فبلا شك سيتوصلون إلى أن حديث السيدة (أ) كشف عن ميول انتحارية أثناء لقائها معنا، وكان من الواجب علينا اتخاذ إجراءات فورية

حينها. وليس من المستبعد أن يتم اتهامنا بأن بعضًا مما قلناه لها بخصوص الاختبار ونتائجه دفعها للانتحار أيضًا. وفي الحالتين، سيتم تحميلنا الأمر كله. وأقل التبعات هي أن نفقد وظائفنا وسيكون من الصعب أن نجد أحدًا راغبًا في توظيفنا بعد ذلك. وفي أسوأ السيناريوهات، يمكن اتهامنا جنائيًّا بالإهمال الجسيم، وهذا يعني السجن لمدة تتراوح بين...".

كان صوته متماسكًا وهادئًا بشكل أصابني برجفة خفيفة، وشعرت بحبات باردة من العرق تتصبب من جبيني، قبل أن أقاطعه:

"ماذا علينا أن نفعل الآن؟"

لاحظ كايودي علامات الهلع على صوتي، وربما أشعره هذا ببعض الرضا، فهذا ما كان يحاول أن يصل إليه. واستكمل حديثه بنفس الصوت المتماسك.

"الأمر ليس بالتعقيد الذي يبدو عليه، ولا داعي للقلق. ببساطة يمكننا أن نمسح اسمها من سجلاتنا. وسنزيل أي أثر لها من على السيستم. سنتظاهر بأن تلك المرأة لم توجد أبدًا. وبذلك لن يقترب منا أي تحقيق بالأساس".

اعتقدت أنه يمزح للحظة، لكن صوته وملامحه كانت جادة تمامًا. ولذا ظننت أنه قد فقد عقله من فرط الخوف.

"نعم؟ المرأة مسجلة على مئة شبكة بيانات، لدى عشرات الإدارات

الحكومية من أول المشافي العقلية إلى السجون وإدارة الإسكان والخدمة الاجتماعية وإعانة البطالة وعيادة المدارس العام. ثم إن لها ابنًا، وعائلة، وجثة محترقة، ماذا ستفعل في كل هذا؟!"

عاد كايودي لابتسامته، ووضع يده على كتفي بغية تهدئتي، واستفزني هذا قليلًا، فأزحت يده، بحركة متأدبة لكن حازمة.

"اسمع! الناس مثل تلك المرأة، لا حياة لهم خارج السجلات، ولا وجود يخصهم دون السيستم. وأنت لم تفهمني بوضوح. بالطبع أنا لا أريد أن أنكر وجودها، في المطلق. هذا غير ممكن بالتأكيد. ولا نحتاجه أيضًا. أنا فقط أريد أن أمحو أي أثر على علاقة لنا بها. ببساطة سنمسح أي إشارة إلى زيارتنا لها".

ظننت أن الفكرة مقنعة للحظة ولكن سرعان ما أرعبتني، فعواقب انكشاف أمرنا أفدح من أي شيء يمكن تصوره. فهذا تزوير. ووجدت نفسي أجاريه، بالرغم من ظاهر أسئلتي المتشككة.

"وكيف ستفعل ذلك؟ وماذا لو انفضح الموضوع؟!"

اتسعت ابتسامة كايودي، وتراجع بظهره إلى الخلف بثقة. بدا أنه كان مستعدًا لكل تلك الأسئلة، على عكسي، فأنا جئت خالي الوفاض تمامًا، وكان على ما يبدو راضيًا عن نجاحه في جرِّي إلى أرضيته.

"اسمع يا صديقي، الأمر سهل. السجلات سجلاتنا، نحن نكتبها

بأيدينا، وفي عهدتنا، ونوقعها بأسمائنا وتتكلم بصوتنا لا بصوت هذه المرأة أو من على شاكلتها. بل حتى حين نسجل ما يقولونه، نسجل صياغتنا نحن، وبخط أيدينا، وبالمفردات التي نظنها أفضل، وبالنغمة التي تأتي على هوانا. هذه السجلات موجودة لحمايتنا لا أكثر ولا أقل. وصحيح نحن في قاع السلم الإداري، لكن لدينا القليل جدًّا من السلطة في هذا الشأن. ومن حقنا أن نمارسها ولو لمرة واحدة لحماية أنفسنا".

لم يكن من الصعب تفهم سبب تقززي من كلامه. فما قاله كان حقيقيًّا تمامًا. لكن حتى لو كان هذا هو الواقع، فلا يجب أن نتماهى معه، هذا ما فكرت فيه، قبل أن أوجه كلامي له:

"ما تقوله يا كايودي خطأ، وأنت تعرف ذلك".

ظهر على وجهه الغضب لأول مرة منذ أن التقينا، وربما لم يكن الغضب بل الرعب، وتحول صوته إلى التوسل.

"اسمع يا صديقي، أنا لديَّ ثلاثة أولاد، أصغرهم ما زال في المدرسة الابتدائية، وقرض على البيت ما زلت أسدده. ولا يمكن أن أعود لنيجيريا. الوقت قد تأخر. نحن لم نفعل شيئًا لأنفسنا، لم نحقق شيئًا، لا أنا ولا أنت. ما يقينا هنا كغيرنا هو العار الذي ينتظرنا لو عدنا من حيث جئنا بلا شيء. الرجوع للتقاعد هناك في الشمس هو الخيار الوحيد الباقي، والبيت ذو حمام السباحة هو التعويض الممكن عن كل سنين الانتظار التي ضاعت وستضيع. وهذه المرأة المسكينة عاشت حياة بائسة فعلًا، ولا ذنب لا لي

ولا لك في هذا. ولا أحد يهتم. حتى ابنها وضعها في السجن. ومن هم فوقي وفوقك لا يهتمون بأمثالها، إلا عندما تصبح جثة متفحمة. وساعتها يبحثون عمن يدفع ثمن هذا كله، وأنا لا أريد أن أكون هذا الشخص، ولا أنت تريد ذلك أيضًا".

كل ما قاله كان حقيقيًّا تمامًا. وقلت لنفسي إن كون الشيء حقيقيًّا لا يعني أنه صحيح، فالحقيقة ليست عادلة بالضرورة. ومع هذا وجدت نفسي أنزلق أكثر وأكثر في فخه.

"من الممكن أن أمحو زيارتنا من سيستم الإدارة، كما تقول. لكن هذا ليس كافيًا، سينفضح أمرنا بسهولة. وستتكشف الحقيقة في النهاية".

كان كايودي يرمي رميته الأخيرة، وظهر عليه أنه يستجمع كل ما لديه من قوة، حتى يحسم الأمر لحظتها.

"الحقيقة هي ما نتفق عليه. الحقيقة هي ما يتفق عليه الناس، لأجل المصلحة العامة. كما رأيت لا يوجد خط داخل المرصد الملكي ولا خارجه. ومع هذا الكل يؤمن به، وكل نقطة على الأرض أو في السماء تقاس بالنسبة له، وكل العالم يضبط ساعاته عليه. خط جرينتش غير موجود، لكنه حقيقة، وفقط لأن بعض الناس اتفقت على وجوده".

كنت قد اكتفيت من سفسطته الفارغة، واستفزتني نبرة الإعجاب بالنفس التي كانت تنضح من كلامه.

"يا كايودي! الخط لا يمر عبر المرصد في الأكاديمية البحرية بمحض

الصدفة. من هنا تخرج أدميرالات الحرب الكبار، ومن هذه البقعة تحديدًا حكمت بريطانيا العظمى أعالي البحار. لا يمر خط الزوال السماوي من هنا، لأن بعض الناس اتفقت على هذا كما تقول. بل لأن بعض الناس كان عندهم مدافع أكبر من غيرهم، وفرضوا على الجميع ما شاؤوا".

ارتخت قسمات الرجل، وبدا وكأنه استسلم، ومرت دقيقة من الصمت، أرعبتني. كنت أريد لخطته أن تنجح، فقط رغبت في أن تكون أكثر إحكامًا. وأطلقت زفرة من الارتياح حين بدأ في الكلام مرة أخرى.

"عندك حق، لننسَ خط جرينتش الآن. سأخبرك بأمور لا تعرفها ولم ترها. وأرجو أن تكون صبورًا معي. حين جئت لهذا البلد، ظننت أنني سأعمل جغرافيًّا، ولم يحدث هذا بالطبع. والوظيفة الوحيدة التي استطعت الحصول عليها، بعد شهور من البحث، كانت وظيفة تمرجي في آخر ملجأ للأمراض العقلية في لندن. وكان في "بروملي"، جنوب هذه الضاحية. كان اسمها ملاجئ، مؤسسات ضخمة، يعيش بها مئات من البشر وربما الآلاف، يولدون فيها ويتزوجون فيها ويموتون فيها. جيتو متكامل، أبرتهايد من نوع خاص، خليط من مرضى عقليين ومدمنين على الكحول ومجرمين بسجل متواضع ومتشردين أرهقهم التسول، كل شيء. وفي البداية لم أفهم لماذا كان كل التمرجية مهاجرين من أصحاب البشرات الداكنة. واتضح الأمر لي مع الوقت، عندما كان يحدث حالة من الهياج، كان علينا أن نقوم بما يجب عمله، بما لا يريد أن يتورط فيه الآخرون،

كان هناك الكثير من الضرب والصراخ والعظام المكسورة. ولما أغلقت تاتشر تلك الملاجئ، وأفرجت عن نزلائها، وبدأوا فيما ما يسمونه "الرعاية في المجتمع"، أطلقونا وراءهم. فهمنا أن المعركة ستكون الآن خارج الجيتو، من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، ودون عنف ظاهر. نحن هنا أنا وأنت، لأن هناك فوضى في القاع، ولا أحد ممن فوق يريد أن يوسخ يديه بها، تركونا لنسوي تلك المسائل، ونحسم الأمور فيما بيننا. مَن فوق لا يهتم بما يحدث تحت، وإن انتحرت واحدة أو أكثر، لا يهم، فلكل معركة خسائرها غير المتعمدة. وطالما كل شيء يتم تغطيته، ويحدث دون جلبة كبيرة، فلا أحد يهتم. ثق في كلامي، الجميع سيكون راضيًا عن إغلاق الموضوع. وصدقني نحن قادران على حسم تلك المعركة لصالحنا".

كان هذا آخر ما تبادلناه من حديث ليلتها، ودعته على وعد بأنني سأفكر في الأمر، وسأرد عليه في الصباح التالي. وانطلق هو إلى محطة قطار الأنفاق، وسرت أنا وحدي بجانب التايمز، وحين وصلت إلى المكان الذي تركت فيه الدراجة، تداعت ثقتي في قدرتنا على حسم المعركة التي في القاع. الأقفال كانت مكسورة وملقاة على الأرض، وكان مكان الدراجة خاليًا.

الفصل السابع

كان آدم أكبر مني بأربع سنوات، واليوم أنا في عمره بالضبط، ومن المدهش أنني غدًا سأكون أكبر منه بيوم واحد. توقف الزمن لديه ليلتها، عند سن الأربعين، ولم يتزحزح. كانت "زيانج هو" تستحم حين كلمني لآخر مرة على الفيسبوك. وسألني إن كنت متاحًا للدردشة، فلقد كان في حاجة لأن يفضفض. لم نكن أصدقاء أبدًا في الماضي، حين كنت مقيمًا في القاهرة. كانت معرفتنا متوترة، يطغى فيها التنمر على المجاملات، بقدر ما سمحت به فرصنا الشحيحة في الحياة. كانت عداوة محتملة دائمًا ففي وقتها كانت كل مواجهة بين شخصين فرصة للتشكك في العالم والانتقام منه. وعندما تزوج قبل رحيلي بشهور لم يدعُني لفرحه وقاطعته بعدها لعدة سنوات.

ولا أعرف ماذا حدث. أصبحنا أصدقاء على الفيسبوك، بعد طول تردد، وقليل من جبر الخاطر من ناحيته. فأنت لا تعرف ما الذي يفعله الزمن بالناس، ولا إلى أين يأخذك الفيسبوك. وكنت أراقبه عن بُعد، يومًا بعد يوم، وأتابع أطفاله يكبرون في الصور. ويصبح هو أكثر رقة مع تجاعيد السن. كنت أرى زواجه وهو يتهاوى ببطء على قسمات زوجته التي أصبحت أقل ابتسامًا مع الزمن. من ناحيته كان يعد الشعرات البيضاء التي تظهر في رأسي في كل صورة لي، ليخبرني حين أرجع للقاهرة كم أبدو عجوزًا. وفي تلك الزيارات كان ينصحني بأن ألبس ألوانًا زاهية ولها صخب، كما يفعل، فهذا سر الشباب والعمر الطويل. وفي الرسائل الخاصة، اكتشفت أن كل قسوته المفتعلة في الماضي لم تكن سوى حيلة من طفل خائف ووحيد للهرب وملجأ للاختباء من هشاشته. وكنا بعيدين عن بعضنا بما يكفي، لنكون أصدقاء أخيرًا على الفيسبوك. وهناك في مملكة الأوجه الزرقاء حيث يمكننا إخفاء كل شيء يخصنا عن الآخرين بسهولة، دفنًا كل الهواجس لصالح المحبة. وكشفنا أنفسنا دون خوف. وأصبح هو صلتي الوحيدة بالقاهرة، وكل ما يربطني بالماضي فيها. وحين وقع طلاقه، كنا نتكلم كل يوم، وأحيانًا أكثر من مرة في اليوم الواحد. أراه على الشاشة وجسده الممتلئ بالفحولة يهتز من النشيج كما يرتجف الأطفال. وعندما طلب مني ساعتها الدردشة على سكايب، عرفت أنه يريد البكاء، وأن أكون شاهدًا على هزيمته، وشريكه في حسرة العمر الذي ضاع. لكنني كنت مشغولًا. سألني:

"من تايوان؟ ودي عرفتها إزاي؟!"

لا أذكر حقًا كيف قابلتها. من الإنترنت، أو ربما أصدقاء مشتركين، شيء من هذا القبيل. استشهدت بمقولة خالتي عن فرموزا، وكان هذا كافيًا كي تضحك أوليفيا حتى كادت أن تفقد وعيها، وأعطتني رقم هاتفها قائلة:

"خالتك مجنونة بالتأكيد".

كان لها اسمان "أوليفيا"، و"زيانج هو". الاسم الأول أبيض للباسبور، حتى يستسيغه الغربيون، ولا يجدون صعوبة في نطقه أو حفظه. وتتجول به أثناء سفرها، تختفي وراءه، وكأنها واحدة منهم. والثاني اسمها الحقيقي الذي لا تقوله لأحد، في لندن. وسألتها عنه، "لا بد أن يكون لك اسم صيني"، وناديتها به، وأحبتني هي لذلك، ورجعت معي إلى البيت في لقائنا الثاني. وكان يومها أول مرة لنا معًا.

"صحيح ضيقين يا شقيق زي ما بيقولوا؟"

كان آدم يسأل بفضول طفولي، ويقهقه في الوقت ذاته غير مصدق فجاجته. وقد تبدد كل الهم الذي صاحبه منذ دقيقة. ولم يكن أمامي للأسف سوى أن أحبطه. لا، لم يكن صحيحًا ما سمعناه بهذا الشأن وبخصوص أمور أخرى كثيرة عن النساء.

"طب والرجالة بتوعهم صغير صحيح؟ ما سألتهاش؟"

كنت قد سألتها بالفعل، ولم تعرف. لم تنم أبدًا مع رجل آسيوي، قالت إنها تحبهم، لكنهم لا يثيرونها. نامت فقط مع رجال بيض حين كانت في

أستراليا. ولا يثيرها سوى الرجال البيض، ولسبب ما وجدتني مثيرًا مثل رجل أبيض. كان هذا مهينًا بعض الشيء. لم تفهم لماذا لم أكن ممتنًا لها، فلقد ظننت أن هذا شيء حتمًا سيطربني. ولم أتبرم كثيرًا، فالأمر صب في مصلحتي ساعتها.

"طيب يا مان، أسيبك بقي مع المزة، بس نتكلم بكرة الصبح ضروري"

أنهكنا أنفسنا ليلتها أنا و"زيانج هو"، واستيقظنا بعد منتصف النهار. وفتحت عيني ونظرت إلى الفيس بوك، من هاتفي، كما أفعل أول شيء في الصباح عادة. وكان كل شيء قد انتهى.

"توفي فجر اليوم الصديق آدم محمود الشرقاوي، بعد أزمة قلبية مفاجئة، العزاء بمسجد الرحمة بعين شمس، الساعة السابعة مساء".

كان هذا اسمه الثلاثي، وكنت متأكدًا منه تمامًا. لم أصدق، ظننت أنني قرأت الاسم خطأ. تشككت لحظة، وحاولت أن أعيد على نفسي اسمه بالكامل، ولم أنجح. شعرت بالعجز يقبض على رقبتي بيده الباردة. كنت ممدًا على الأرض بجانب "زيانج هو"، وبدأت في النشيج، واختلط كل شيء في ذهني. نظرت تجاهها، ولم أعرف من هي. حملقت في الجملة المكتوبة على صفحة الصديق المشترك أكثر من مرة وعلى عيني غمامة من الدموع. كنت قادرًا على تبين كلماتها، كل واحدة بمفردها. لكن ذهني توقف عن العمل، ولم أكن قادرًا على استيعاب معناها في المجمل. فقدت السيطرة على جسدي، وكانت أطرافي ترتجف بعنف. شهقت بصوت عالٍ، بين كل محاولة يائسة

لالتقاط أنفاسي وأنا أصارع الحمل الذي أطبق على صدري. و"زيانج هو" رأتني أرتعش على الأرض وأنتحب، وأرعبها المنظر. هرولت إلى الباب وهي في نصف ملابسها، والنصف الآخر في يدها. لم أرها بعدها أبدًا.

كتبت رسالة إلى الصديق المشترك، وسألته. أجابني في الحال، وقال لي إنه فعلًا "آدم بتاعنا". لم يجعلني هذا أكثر تصديقًا، أو أقل شكًا. ذهبت إلى صفحة آدم ونظرت. كان هناك مئات من عبارات التعزية والمواساة على حائطه. كانت كلها بلا معنى. لم يكن هنا شيء واحد لحظتها، لا في السماء ولا على الأرض، يمكن أن يقنعني بموته.

فتحت محادثات الفيسبوك، كانت رسالته الأخيرة على رأس القائمة. وكانت صورته ضاحكة وتنضح بالحياة كما هي، لم يتغير شيء. حملقت فيها، تأملت في وجهه ثم ضحكت وأعدت قراءة الرسائل. هو هنا، لم يذهب إلى أي مكان. انتظرت للحظة أن يكتب لي شيئًا. مرة أخرى غالبتني الدموع، وبدأت في قرع صدري بقبضتي وكنت أسمع صوت الخبطة على ضلوعي، وأشهق، "يا ريتني كنت كلمتك يا حبيبي، يا ريتني كنت كلمتك يا نور عيني!"

كان كل شيء قد انتهى. وكأن آدم أول من ماتوا وآخرهم. ورأيت فداحة الموت للمرة الأولى بهذا القرب. حين يغلق كل باب للندم. حيث لا يوجد موطئ لخطوة للوراء. ولا بقية من زمن يمهلنا لإصلاح ما حدث. ولا رجاء في العودة إلى ما لم يحدث أبدًا. وأدركت ساعتها أن "أبدًا" هي

كلمة سر الموت، وأن الأبدية هي خلود عجزنا نحن الأحياء... الندم على ما فات ولم نتشاركه مع الراحلين (أبدًا). والحسرة على ما سيأتي ولن نستطيع أن نخبرهم به (أبدًا). أو نضحك عليه معًا. انكشفت لي حينها أشياء كانت غامضة، فهمت لماذا ظن القدماء أن الأبدية لا تأتي سوى مع الموت، ولماذا لا يتحقق الخلود سوى بالفناء.

يقولون إن بعض الناس تحتاج ساعات، وبعضهم يلزمهم يومين أو ثلاثة، حتى يتجاوزوا مرحلة الإنكار. تطلب الأمر بضع أسابيع مني. كنت أفتح المحادثات بيننا، أكتب له على ماسينجر وأنتظر أن يرد. أحملق في الشاشة بالساعات وأقرأ كل كلمة كتبناها في العشرة أعوام الماضية. كان أيمن يتصل بي يوميًّا. يقول: "أنت بعيد ووحدك. نحن هنا يستند أحدنا على الآخر، والحزن خُلق للجماعة".

ويقول:

"آدم مات يا صاحبي، ومش هيكتب لك حاجة تاني. كفاية لازم تصدق".

كان أيمن آخر ما بقي لي من القاهرة بعد آدم. ونصحني أن أبتعد عن الفيسبوك، فمن الواضح أنه لا يساعدني. حاولت ولم أحتمل أكثر من بضع ساعات. وفي كل مرة، كنت أعود لأكتب الرسائل لآدم. هذه كانت تعزيتي الوحيدة. في البداية كنت أنتظر ردًّا منه، ومع الوقت أصبحت راضيًا عن الكتابة له من طرف واحد. وأضحى لدي يقين دافئ، لا أعرف مصدره،

بأنه يقرأ ما أكتبه ويسعده. بمرور الأسابيع، تكشف لي أن الفيسبوك نفحة إلهية من الرحمة وضعت بين البشر. لمسة من يد السلوان في قلوبهم، يقرب البعيدين ويخفف فراقهم ويبقى مخلصًا لذكرى الأحياء.

لاحظت أن الناس لا تموت على الفيسبوك، تظل صفحاتهم كما هي، وصورهم لا تشيخ. أحاديثهم وقفشاتهم، والأشياء المخجلة التي يكتبونها في لحظات اليأس، تبقى خضراء كما كانت أول مرة. بل وتزيد نضارتها بمرور الزمن. ظننت أن الأمر غير متعمد في البداية، لكنه كان بالفعل على غير ذلك. فالفيسبوك كان يذكرني بإلحاح كل عام بعيد ميلاده، وبداية صداقتنا، ويضيف عامًا إلى عمر محبتنا وعدد سنينها، التي لن تنتهي أبدًا. داوم الفيسبوك على إيماءات الوفاء، فكان يذكرني بصورة تشاركناها أو عبارة كتبتها عنه أو على صفحته. يذكرني بشيء شاركه عندي. كانت الذكرى تملؤني بالعرفان والإيمان بالرأفة الإلهية.

يضحك الناس مني، في كل مرة أخبرهم أن هناك شيئًا ربانيًا في الفيسبوك. ويتعجبون ويهزون رؤوسهم حين أقول إنه هيكل للخلود الأرضي. على أعتابه قداسة الأبدية وقبس منها في محبة عالمنا الفاني. وظن معظم معارفي أن لطفًا أصابني حين أخبرتهم أننا خالدون بفضله. وأن كل كلمة نكتبها على حوائطه وكل ذاكره تحملها أيقونة لنا ستكون أثرنا الباقي في المستقبل. عبرة لمن يأتي بعدنا ولم يعرفنا. صلة لنا بغد لن نراه لكنه سيرانا كما نريد. لم يكن الفيسبوك وحده الذي بدأت في توقيره والتعامل معه بالمهابة اللائقة

به. بل فهمت المعنى الباطن في كل قواعد البيانات والشبكات والأرشيفات وأنظمة الخلود الرقمية التي نترك بصماتنا عليها كل يوم، دون أن ندري أحيانًا كثيرة، وبرعونة قصر النظر في معظم الوقت.

في الطريق من جرينتش، بعد أن افترقنا أنا وكايودي، كانت ذكرى آدم تعذبني. كيف لي أن أعبث بالسيستم وأدنس ذكرى الموتى هكذا. لن أجرؤ بالطبع على محو اسم السيدة (أ) من قاعدة البيانات. ولا أهتم بالنتيجة، ولا بما سيحدث لكايودي أو لي. فلا خطيئة أكثر دنسًا من النسيان عمدًا.

لم يكن هناك مفر في أن أعود للبيت بالمواصلات العامة. كنت غاضبًا وحزينًا. فالدراجة قد اختفت، وهذا فقد من نوع بعينه. لكنه ككل صور الفقد، الصغرى والكبرى، يعيد إلينا ذكرى جميع خساراتنا. وعلى الرغم مما يبدو عليه أمر سرقة الدراجة من تفاهة فإن فيه من الألم وأسباب الحسرة ما كان كافيًا لأرى الغبن في أن يسرق اسم المرء منه بعد موته، وأن تنتزع سيرته من العالم. لسبب ما ملأتني تلك الأفكار بدفقة من الطمأنينة. انقلب شعوري بالغضب إلى إحساس وديع بالرضا، والقبول بما يأتي به العالم أيًا كان.

لم تكن المحطة بعيدة، وكان الزحام في الشوارع قد هدأ، وأضاف ذلك إليَّ شعوري بالسكينة. اندهشت من السرعة التي يتقلب بها مزاجي من حال إلى حال. تمشيت قليلًا في الشارع الرئيسي، ولطفت نسمات المساء الخفيفة من حرارة اليوم القائظ. بهدوء أخذت نفسًا عميقًا وطويلًا. ولطمتني

لمسة الرطوبة في الهواء ورائحتها المدخنة بحنين لأمسيات نهاية الصيف في القاهرة. كان مشهد الناس يتهادون على الأرصفة في دعة، أو يتصايحون من أثر السكر الخفيف أمام البارات، بملابسهم الصيفية الزاهية وأجسادهم المشوقة التي دبغتها الشمس بالحمرة، جميلة ومبهجة. فكل شيء كان رائعًا إلى حد الألم. وشعرت حينها أن هذا أبدع مشهد رأيته في حياتي. تأملت الوجوه والأجساد التي أخذني حسنها لبعض الغيرة والرغبة. وفي محطة المترو، كان المشهد كرنفاليًّا، الرصيف ممتلئ بالنساء الجميلات والرجال الذين لا يقلون وسامة من كل الألوان والأجناس واللغات. وكان الجميع متشابك الأيادي، ويتبادلون القبلات الحارة بفورة الكحول. وفي أحد الأركان كان يقف زوج في سن المراهقة يتلامسان بأصابعهما في هشاشة حنونة وعيون يملؤها خجل ينضح بالفتنة.

أحسست بالسعادة لهم جميعًا بقدر شعوري بالشفقة على نفسي. فكل هذا الجمال القاسي أشعرني بوحشة وحدتي. وخطر لي أن بين الجميع في هذه المدينة عهد سري على الحسن. أن يبذلوا كل ما يستطيعون ليكونوا في أوج جمالهم أمام الجميع ولأجلهم. أسعدتني تلك الفكرة وأخجلتني أيضًا قليلًا، فلم أكن في جمالهم ولم أعتنِ بمظهري كما يجب.

منذ بدأت سياسات التقشف وخفضوا راتبي لم أركب مواصلة عامة. لذلك وجدت صعوبة في أن أجد طريقي داخل الأنفاق. فبعض الأشياء كانت قد تغيرت من ذلك الحين. قلت وتيرة تكرار التنويهات المسجلة التي

كانت تبثها الإذاعة الداخلية للمترو كل بضع دقائق: "إذا رأيت متعلقات، دون صاحب، قم بإبلاغ الشرطة في الحال". توقفت العمليات الإرهابية في المدينة لبعض الوقت الآن، أو خفت وتيرتها على الأقل، أو ربما اعتادها الناس. لم يعد هناك حاجة لكل تلك الإشعارات المقبضة.

مرت بضع دقائق قبل أن يصل القطار الأول، كان به عدد قليل من الركاب، مع ذلك فضلت الوقوف بدلًا من الجلوس. ففكرة الجلوس في مواصلة عامة، وبالقرب من ركاب آخرين أصبحت غريبة لي بعض الشيء. وظل القطار واقفًا على الرصيف، برهة كانت كافية لأسمع تنويه الإذاعة الداخلية الجديد وآخر شعارات الخوف في المدينة:

"التسول مخالفة يعاقب عليها القانون، رجاءً لا تشجعوا المتسولين بمساعدتهم بالمال".

كررت الإذاعة التنويه مرتين، وانطلق القطار. كانت الصياغة قاسية، وأصابتني رعشة من الاضطراب. في المحطة التالية، أعادت الإذاعة الشعار بصوت عالٍ جدًّا، هذه المرة مع صفير حاد وطويل. كان هناك عطب في السماعات بالتأكيد، وضع الركاب أيديهم على آذانهم من فرط الإزعاج، وأغمض البعض عيونهم وتقلصت عضلات وجوههم من الألم. وخطر لي حينها أن التسول أفضل من الإرهاب وكذلك من سرقة الدراجات، وخاصة حين يكون شعار المرحلة هو التقشف.

وعدت لتأمل الوجوه الجميلة، من حولي في عربة المترو بنهم. كانت

أمامي شابة جميلة بملامح هندية وبوجه كالملاك وشعر طويل ولامع. تلاقت أعيننا. وكانت عيناها واسعتين ومملؤتين بالدهشة والثقة المغرية. ابتسمت في وجهي، وهذا غير معتاد لي، فابتسمت لها. تغيرت فجأة ملامحها وقطبت جبينها، ثم نظرت لي بخليط من الخوف والغضب وأشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى. وبعد لحظة تحولت إلى الضحك بصوت عالٍ، وبدأت في الرقص حول نفسها، وفهمت أنها تحت تأثير مخدر قوي ومتقلب.

ارتعش هاتفي في جيب البنطال، أخرجته وهممت بفتحه لأقرأ الرسالة التي وصلني إشعارها. لكن رائحة ثقيلة من العفانة لفحتني من الخلف وشعرت بيد غليظة تقبض على كتفي.

"أرجوك ساعدني، أنا جائع، وليس لديَّ مكان للنوم الليلة".

حين استدرت، كان وجه الرجل قريبًا جدًّا من وجهي، فلطمتني الرائحة القذرة التي تفوح منه بعنف حتى أنني تراجعت إلى الخلف خطوة واحدة لم أتعمدها. كان خليطًا من رائحة العرق والكحول والدخان ثقيلًا وكثيفًا، وللحظة لم أكن قادرًا على التنفس. رفعت كفي بحركة آلية وغطيت أنفي وفمي.

"آسف يارفيق، ليس معي نقود".

لم يكن معي بنس واحد فعلًا، فمن يستخدم الكاش هذه الأيام! لكنه كان لحوحًا. وضع يده الأخرى على كتفي الثاني. استمر في التوسل بلكنته الإسكتلندية الباعثة على الثقة، كما يقولون عنها هنا. كنت أصدقه فعلًا،

وأعرف أنه في حاجة للمساعدة، لكن لم يكن معي كاش. واعتذرت له مرة ثانية وبالغت في إظهار علامات التأثر وتمنيت له أمسية سعيدة. تراجع الرجل إلى الخلف، بخطوة مترنحة بفعل السكر، وبدأ في توجيه توسلاته إلى الركاب الآخرين.

"ساعدوني، أنا مشرد، وجائع، وأحتاج مساعدة!"

كان مشهد الرجل مريعًا حقًّا. كان يرتدي ثلاث طبقات من الملابس الثقيلة في هذا الحر، ربما هي كل ما يملك، كانت متسخة جدًّا وعليها هالات من الوحل وآثار العرق. كانت قدماه نصف العاريتين بأظافرهما الطويلة القذرة متنفختان، وبرزتا من صندله وكأنهما على وشك الانفجار. غطت لحيته الحمراء خيوط من اللعاب والمخاط، وعلى يديه ورقبته طبقات من القروح غير المندملة الملوثة والعتيقة. أصابني النظر إليه برجفة من القرف والشفقة. لكن لم يكن في يدي شيء لأفعله من أجله. أدرت له ظهري، ونظرت في هاتفي.

"هاي! الجثمان سيصل إلى مقبرة رأس الراهبة القديمة، في القسم الإسلامي منها، غدًا منتصف اليوم حوالي الساعة الثانية عشرة ونصف، وسيدفن دون مراسم، يمكن أن تذهب هناك في الموعد لحضور الدفن. باتريك".

لوهلة لم أفهم من هو باتريك، واحتجت بضع ثوانٍ حتى استجمعت أفكاري، وتنبهت إلى أنه هو رجل القطن بالتأكيد، فمن غيره؟ لا أذكر إن كان عرفني باسمه أم لا. ولم يكن هذا مهمًّا. اختلطت عليَّ مشاعري،

ولم أعرف إن كان يجب أن أبتهج للأخبار التي وصلتني أم أحزن. كانت هذه واحدة من المشاكل التي أصبحت أعانيها في الأعوام القليلة الماضية. فأحيانًا لا أجد المشاعر المناسبة للموقف، أو حتى غير المناسبة، ويصبح التفريق بينها صعبًا. في أحيان أخرى تنقلب مشاعري من النقيض إلى النقيض في لحظة. وفكرت أن رد الفعل الأمثل هو أن أكتب لأيمن في الحال وأزف إليه الأخبار.

"اسمي جيمس، وأنا جوعان ووحيد، أحتاج مساعدة"

رجع الرجل المتسول مرة أخرى، بعد أن قطع ممر عربة القطار إلى آخره. ولم ينظر إليه أحد من الركاب. وتظاهر الجميع بالتدقيق في شاشات هواتفهم، أو بالتحديق في الفراغ. والشابة المخدرة توقفت عن الرقص وأغمضت عينيها، متظاهرة بالنوم واقفة. فهناك مشاهد يحسن للمرء ألا يراها، وأمور أفضل للناس ألا يعرفوها. وخمنت أن جيس ليس اسمه الحقيقي. اختار اسمًا كلاسيكيًا ومعتادًا وبلا ملامح ليقول لنا إنه شخص كالجميع، وأنه يمكن أن يكون كل إنسان نعرفه، وأن ما وصل له يمكن أن يكون مصير أيٍّ منا. الأسماء تعطي للناس وجوهًا، حتى لو تفادينا النظر إليها. اقترب الرجل مني مرة أخرى، وأعاد جمل تسوله. شعرت بالانزعاج من إلحاحه، ومن رائحته القذرة. ظننت أنني ربما أكون مخطئًا بشأنه، فهو لا يتوسل باسمه شفقة ما، بل يسعى لتنغيص رحلتنا، وتعكير تواطئنا السري على الجمال بمظهره البشع هذا. الأمر محض ابتزاز، ندفع له

حتى يختفي عن أنظارنا. نرشوه حتى يتوقف عن تعكير ليلتنا، وعن بث الاضطراب في الصورة المنمقة للعالم من حولنا. أدرت وجهي بعيدًا عنه، وعاودت التحديق في شاشة هاتفي دون غاية محددة. وفجأة أطاحت بي خبطة قوية ومكتومة، وطار التليفون في الهواء ووجدت نفسي مطروحًا على أرضية القطار.

"أنا أكلمك يا باكستاني يا قذر، اترك التليفون اللعين!"

كان الرجل يصرخ في هياج، بعد أن دفعني أرضًا بكل قوة. وتملكني الرعب من أنه سينقض عليَّ ويوسعني ضربًا. لم يكن لي فرصة أمامه، فهو ضخم الجثة، وقبضته كانت مضمومة بغل يكفي لتحطيم عظام وجهي بضربة واحدة. ركلة في معدتي برجله المتضخمة ربما تقتلني. ارتفع صرير العجلات، ووصل القطار إلى محطة ما، فقفز الرجل من الباب الذي انفتح لحظتها وهرول على الرصيف ثم اختفى عن الأنظار.

"هل أنت بخير؟ هل تحتاج مساعدة؟"

سألتني الشابة المخدرة، التي كانت قد فاقت على صوت اصطدام رأسي بالأرضية. ظهر على ملامحها هلع مبالغ فيه، حتى إنني كدت أضحك من فرط تعبيراتها. أخبرتها أنني على ما يرام. انحنت والتقطت الموبايل، وناولته لي بيد، ومدت لي ذراعها الآخر لتعينني على القيام. لم أحتج لذلك، انتصبت واقفًا بسهولة، لكنني شعرت بركبتيَّ ترتجفان قليلًا وبطنين خفيف في رأسي. أفسح الراكب الأقرب لي مكانًا بجانبه فجلست. وخيم صمت

ثقيل على العربة. تحاشى بقية الركاب النظر إليَّ أو إلى بعضهم، وفعلت أنا ذلك أيضًا. كنت ممتنًا أن الأمور لم تتطور إلى أسوأ من ذلك، لكنني كنت مهزوزًا من داخلي.

تناولت جريدة كانت ملقاة على المقعد المجاور، ودفنت وجهي فيها. ودفنت شعوري بالمهانة وتظاهرت بقراءتها. اكتفيت بالمرور على عناوين الصفحة الأولى، ولم يكن أيٌّ منها يستحق الالتفات. وفي ذيل الصفحة، كان هناك خبر خفيف، سليت نفس بتفحصه: "عشرة بالمئة من الحيوانات الأليفة لها غرفها الخاصة في المملكة المتحدة". قرأت وابتسمت.

"تستاهل... أحسن".

كان أيمن، يقهقة في شماته على الجهة الأخرى من الخط، فقد هاتفته بمجرد أن عدت للبيت وأخبرته بالتفاصيل المزعجة لأمسيتي.

"يعني ليه الأذى؟! عملت لك إيه أنا عشان كل ده؟!"

لم تزعجني دعابات أيمن السمجة، فأنا معتاد على مناكفاته، وإن كنت أعرف أنها ليست بريئة بالكامل. فهو يقول أكثر مما يعني أحيانًا. ويعني أكثر مما يقول في أحيان أخرى.

"إنت إيه إللي زعلك دلوقتي، إنه قالك يا باكستاني، ولا إنه قالك يا قذر؟"

استمر هو في قسوته، وظهر أنها متعمدة أكثر من المعتاد.

"الاثنين يا سيدي، وهو مقاليش يا باكستاني. قال لي يا باكي، ودي صيغة تحقير زي، نيجر لما تتقال للسود".

وكان واضحًا من صوتي، أنه تمادى قليلًا وأزعجني بالفعل والموقف لا يحتمل. لكن لم يردعه هذا، ووصل للنقطة التي كان ينتظرها.

"وإنت كنت منتظر إيه؟ متفاجئ يعني إنك بتتشم عندك؟... من خرج من داره أتقل مقداره. وقلت لك الكلام ده زمان".

كان على حق، كالعادة. ويظل على حق دائمًا. هذا كل ما يريد أن يثبته. كتمت غيظي بقدر الاستطاعة، فآخر ما كنت أحتاجه الآن هو مشادة معه.

"يعني أنا لو كنت سمعت كلامك، وقعدت جنبك. ماكنتش هتبهدل في المخروبة؟!"

تغير صوت أيمن قليلًا، وأضحى أقل تهكمًا. وظهر أنه لم يعد يمزح، أو على الأقل توقف عن إخفاء الجد وراء السخرية.

"تمام، ما هم بيقولوا برضه: عويل بلاده عويل بلاد الناس... فما تشتكيش بقى".

وقعت جملته على أذني أثقل من الضربة التي دفعني بها الرجل في القطار، وارتفع صوتي في انفعال.

"يا عم ما بشتكيش، بقولك بس. وبعدين، يعني لو ما اشتكيتش ليك، أفضفض لمين يعني!؟ ما إنت عارف إني لوحدي هنا. مالك يا أيمن شادد حيلك عليا ليه؟ فيه حاجة مزعلاك؟"

ويبدو أن الغضب في نبرة صوتي كان كافيًا، لتعديل دفة الحديث.

"طيب يا سيدي، ما تزعلش. المهم، إنت كويس... هتعمل إيه في المصيبة بتاعت الولية إللي انتحرت دي؟"

لم أفهم سؤاله، فقد أخبرته بالفعل أنني لن أوافق كايودي على ما يريده. وكنت متأكدًا أن موقفه هو أيضًا سيكون بالمثل. فأيمن لطالما فعل كل شيء بحسب الأصول.

"هعمل إيه في إيه! مفيش حاجة تتعمل. وإللي يحصل يحصل".

مرت لحظات من الصمت، ولم أفهم مبررها حينها. وجاء صوت أيمن كاشفًا عن ثقل الهموم التي أراد حجبها وراء غلاظته تجاهي.

"اسمع، الست ماتت وخلاص. ومش ذنبكوا. والحي أبقى من الميت. ولو الموضوع سهل صحيح، ومفيهوش خطورة، إمسح أي حاجة تجيب لك سين وجيم في الموضوع. وزي ما بيقولوا الباب إللي يجيلك منه الريح".

تبادلنا الأدوار، وبدأت في إغاظته. فتلك كانت طريقتنا في تهوين الأمور بعضنا عن بعض.

"أنت إيه الجو إللي إنت فيه ده؟ محسسني إني بكلم خالتي إللي في البلد. كل جملتين تجيبلي مثل شعبي؟"

عاد أيمن للقهقة وللسخرية، لكن من نفسه هذه المرة.

"ما هو المثل بيقول من ساب قديمه تاه... إسمع كلامي، ولو مرة

واحدة. وبطل عند. مفيش معنى تعمل بطل. ما تعملش زيي. عملت فيها بطل، وقعدت عشان آخذ بالي من أبويا، كبر ومالوش حد، والكلام الفاضي ده. والنتيجة زي ما إنت شايف. من ساعة إللي حصل لأبو غياث ومراته، وأنا ما بنامش بالليل. أنا تعبان، يا مان. عجز إبن كلب. أنا بعمل إيه عندي هنا؟ ولا حاجة.. ولا عملت حاجة".

لم تكن هذه المرة الأولى التي يتشكك أيمن في قراره بالبقاء في مصر. فبعد أن أصابته قرعة الهجرة العشوائية، قبل سنوات، ورفض أن يسافر، لطالما انتابته فورات من الندم. لكن صوته هذه المرة كان مملوءًا بمرارة لم أسمع ثقلها من قبل، ونبرة من اليأس لا تناسب الصورة التي أحتفظ بها له في ذهني. وبدا أن تحريضه لي على مجاراة كايودي، بمثابة إعلان استسلامه هو. ولم أجد ما يمكن قوله له.

"إنت كويس. عندك بيت، ووظيفة. وبتنام مش خايف في سريرك بالليل. مشي أمورك وحافظ على لقمة عيشك. إنت مش عارف الأمور هنا بقت عاملة إزاي. إحمد ربنا، إنت أحسن من ناس كتير".

كانت كلمات أيمن ترن بالغيرة في أذني. وتظاهرت بموافقته. فلم يكن هناك معنى للشكوى له من الحياة هنا. ولا طائل من إخباره بأنني باقي في لندن لسبب واحد لا أكثر. فليس هناك مكان آخر للهرب إليه، ولا فرصة للرجوع من حيث جئت. لو كانت القاهرة ظلت على حالها قبل عشر سنوات، لكنت قد عدت. أنا عالق هنا، مثلما هو عالق هناك. تغيرت بها

يكفي لأكون غريبًا في القاهرة وعنها، ولم أتغير كفاية لأتخلص من وصمة الغريب في لندن.

كل شيء مؤقت هنا، الانتظار، وبين وبين، كما أن كل شيء خانق ومحبط هناك. والانتظار أقسى من اليأس أحيانًا كثيرة، وهو لن يعي هذا. ليس هناك ما هو أكثر من بؤس حياة لم يبقَ منها سوى لعبة الذاكرة. معركة طويلة ضد النسيان، ومحاولة لا تنتهي للتمسك بالماضي. محاولة لاستحضاره في المكان الخطأ والزمن الخطأ. أعرف أنه لن يفهم أن محاولة الهرب والفشل وإعادة المحاولة أهون على الروح من الحنين إلى الأسر. لن يستوعب أن الأمل في النجاة أفضل من نجاة نكتشف أنها خدعة. وأفهم لماذا لن يفهم هذا كله وأعذره.

انتهت مكالمتنا وتركني كلامه مشوشًا، ولم أعرف ما الذي يجب أن أفعله في الغد فيما يخص موضوع السيدة (أ) وبياناتها. كنت قلقًا مما قد يحدث لي لو فقدت وظيفتي. وكان لديَّ رغبة عارمة في البكاء. حرنت الدموع في عيني، ورفضت أن تنزل، عاندت الحزن وعاندتني. كان هذا شعورًا مؤلمًا أكثر من الحزن نفسه. لكنني كنت أعرف تمامًا ما يجب فعله. خرجت من غرفة النوم إلى المطبخ، وفتحت باب الثلاجة، وجثوت على ركبتي، لأنزل إلى مستوى الفريز وجذبت الدرج الأول منه. حملقت فيه لبضع ثوانٍ ولم يحتج الأمر سوى نظرة واحدة، حتى تنساب الدموع دافئة ومطمئنة كبلسم. كان كيس حلقات البصل المجمدة هو ما كسر جحودها.

لمسته وأزحت طبقة الثلج الرقيقة التي تغطيه، وذاب عن الحزن قسوة كتمانه. أدهشني كيف تجلب الأحزان بعضها، وكأن خيطًا رفيعًا يربطها، كيف تتداعى ذكرياتها واحدة وراء الأخرى.

غادرت "بوتيتسا" قبل ستة أشهر، وتركت خلفها الكثير ليذكرني بها. أربعة أعوام من الأشياء الحميمة وعلامات الألفة التي راكمناها يومًا بعد يوم، يدًا بيد، أمام أعيننا وفي أرواحنا. كان هذا الكرسي الهزاز في غرفة المعيشة هديتها لي في عيد ميلادي منذ عامين. والدولاب الذي اشترته حين نقلت للشقة. وفي هذا الركن كانت تحب أن تجلس وتقرأ في المساء. وأحضرنا تلك السجادة من الهند، ولم أحبها أبدًا، لكنني كنت فخورًا بأنني فاصلت مع البائع وحصلت عليها بنصف الثمن. وخلف هذا الباب، لا تزال ضحكاتها ترن في أذني، فلا أحد غيرها يمكنه أن يضحك بمثل تلك البراءة المُخجلة وهي جالسة على قاعدة التواليت. وكان هذا جانب السرير الذي تفضله، وتدفئه لنا في صباحات الشتاء الكسولة. خمسة أكواب باقية من طقم النصف دستة الذي جلبته معي من القاهرة، كسرت واحدًا منهم في شهرنا الأول، وأغضبني ذلك جدًّا، وكدنا ننفصل حينها. كل مرة أفتح باب الشقة أتذكر حين كانت تنتظرني في الليالي المتأخرة، أدير المفتاح وأجدها واقفة هنا بالضبط، قلقة ونعسانة، وتضمني. كنت أنا من طلب الفراق. ولا أتذكر لماذا فعلت ذلك. سألتها أن ننهي علاقاتنا، بكت هي قليلًا وغادرت. هكذا وبهدوء تنتهي العلاقات هنا. انسلت بلا ضجيج ولا كلمة لوم واحدة، وتركت وراءها عمرنا معًا. تمنيت لو صرخت، أو قذفتني

بشيء، أن تلعنني، لكنها لم تفعل. كيف حدث كل شيء بهذه البساطة! أبكي أحيانًا حتى أتخفف من ثقل الذنب، وأبكي أحيانًا من الندم. أنظر إلى كل هذا، ولا أرى سوى نهاية العالم، أو الأطلال، كما يقولون في الشعر القديم. ليس هناك ما هو أكثر حزنًا من أن تكون الأطلال في شقتك نفسها وفي الفريزر. كل علاقة تنتهي كموت صغير. وكل موت هو نهاية لعالم، عالم فريد، بتفاصيله التي لا تتكرر. خسارة نهائية له. لعالم لا يمكن استرجاعه ولا تعويضه ولا بعثه من جديد. تأتي علاقات أخرى حتمًا، أو حتى لا تأتي لكن الأكيد أن كل ما فات انتهى. وأنظر إلى تلك الميتات الصغرى التي عشتها، وأرى تعزيتي الوحيدة هي الفرادة، تلك الفكرة الغامضة التي لا نفهمها سوى بالفقد. الفرادة التي تجعل كيسًا من حلقات البصل المقلي المجمدة عنوانًا للحب الذي كان، وشاهدًا على الفراق.

قبل أسبوعين من انفصالنا، اشترت كيس البصل المجمد، وكأنها كانت تعرف، قلبها كان حاسس. استخدمت نصفه على الأقل، لا أعرف متى، وتركت النصف الآخر. وفي الصباح الذي غادرت فيه أخبرتني أن الأمر سهل جدًّا، كل ما عليَّ فعله أن أضعه في الفرن لنصف ساعة فقط بدرجة حرارة 180 وسيكون جاهزًا. ونظرت لي بحنان، وأوصتني بأن آكل جيدًا، وألا أعود للتدخين، وربتت على كتفي وخرجت. ستة شهور قد مرت، وما زال الكيس هناك راقدًا في درج الفريزر كجثة، أشباحها تحوم حولها. أنا لا أحب حلقات البصل المقلية وأكره رائحتها. وفكرت أكثر من مرة أن أتخلص

منها، ولم تطاوعني يدي. فماذا سأفعل دونها، إن احتجت للبكاء؟

بهت الألم رويدًا رويدًا عن الذكريات الأخرى والأشياء والأثاث، وبقي حولها هالة شاحبة من الحنين، أستأنس بها وأبتسم حين أتذكر "بوتيتسا". لكن كيس البصل وحده الذي يلطمني في كل مرة بعنف، ولا أفهم لماذا أنفطر أمامه. وأقنعت نفسي بأن للبصل، نيئًا أو مجمدًا، سر ما تسيل لأجله الدموع. فبوتيستا كانت قد تركت نصف كيلو من الكبدة أيضًا في الفريزر. وبعد يومين من رحيلها طبخته مع بعض الثوم وأكلته وكان لذيذًا فعلًا. عرفت حينها أن الأشياء التي نحبها قصيرة العمر، وأن الجوع يفسد الحنين ويتغلب على الذكرى.

اكتفيت من البكاء. وبرودة الكيس كانت قد جمدت أصابعي وتحولت أطرافها للون أبيض مائل للزرقة. تلك الزرقة الذي تصيب أجزاء الجسد قبل أن نفقد الإحساس بها. واختلطت الدموع مع قطرات الثلج الذائب التي تساقطت من الكيس، وصنعت بركة صغيرة من الملح والماء البارد أمام الثلاجة. خشيت أن تفسد حلقات البصل إن لم أعدها للفريزر في الحال، فرائحتها المزعجة كانت قد بدأت في الفواح، ولمعة الزيت الذي تسربت منها غطت يدي بإحساس زلق. أعدت الكيس إلى الفريزر مرة أخرى، وغسلت يدي في حوض المطبخ، ثم عدت إلى غرفة النوم. كنت مجهدًا، لكن ذهني كان مشغولًا، هادئًا بما يسمح لي بالنوم. استلقيت على السرير، وأمسكت بهاتفي، وفكرت في التلصص على صفحة "بوتيتسا" على الفيسبوك.

إلا أنني تذكرت أن مهمة ليست بالهينة تنتظرني في الغد، وأن من الواجب الاستعداد لها. وخطر لي أنني أحتاج لمعرفة المزيد عن الشاب الذي سأحضر دفنته بعد ساعات أو سأكون مسؤولًا عنها بشكل ما. ووجدت نفسي أبحث عنه على فيسبوك. كتبت اسمه في مستطيل البحث، "غياث عباس"، وظهرت قائمة من مئات الحسابات بنفس الاسم. كان الأمر محيرًا، فجميعهم كانوا من طرطوس، كما تقول بياناتهم. بعضهم مقيم في لندن، والبعض الآخر في برلين، وإستنبول، وبيروت، وعمان، والإسكندرية، وكل مدينه يمكن تصورها. وبعد أن فحصت بعض الحسابات في القائمة، شعرت بالإجهاد، وكنت على وشك الإقلاع عن المحاولة. فمعظمهم كانوا في أعمار متشابهة، وكثيري الأسفار، وجابوا نفس البلاد تقريبًا. إلا أنني لمحت أخيرًا، وبالصدفة، الصورة التي ميزته عنهم جميعًا. كان هو غياث الذي أبحث عنه، صورته هو والدرفيل الطيب متعانقان. وقضيت بعض الوقت أتصفح حسابه وصوره، ووجدت أن معظم القصص التي رواها لي أيمن عنه مبالغ فيها كثيرًا، باستثناء قصة الدرفيل بالطبع. كانت هي الأكثر حقيقة والأبعد تصديقًا، ككل الأشياء الصادقة. غير هذا لم يكن هناك الكثير الذي من الممكن لي أن أستشفه عنه.

"الأصدقاء في لندن، غياث شاب سوري وصل لبريطانيا قبل عدة شهور بعد رحلة طويلة ومرهقة. وربما لم يحتمل قلبه كل هذه المشقة، فتوقفت دقاته قبل أيام فجأة في غرفته وعلى سريره وحيدًا وبلا شاهد.

ليس لغياث أهل هنا، مثل الكثير منا، ولا أصدقاء أيضًا. يوم الغد، حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف، سيقوم مسؤولو المجلس المحلي في لويشهام بدفن الجثمان في مقبرة "رأس الراهبة" القديمة. وسأكون حاضرًا، تلبية لرغبة أسرته في أن يكون هناك شهود على جنازته. أتمنى أن كل من يتوفر له بعض الوقت، ويستطيع الحضور أن يشاركني في واجب توديعه. ومن لا يستطيع، فرجاء أن يقوم بمشاركة المنشور على صفحته".

أعدت كتابه الفقرة أكثر من مرة، وظننت أنها ركيكة في البداية. وغيرت صياغتها بعض الشيء لتبدو أكثر جدية، لكن وقعها أضحى مبالغًا فيه أكثر من اللازم. كنت قد وصلت لتلك الصياغة النهائية دون رضًا عنها. لكن هذه المرة الأولى التي أكون مسؤولًا فيها عن دفن شخص لا أعرفه. المرة الأولى التي أعلن فيها عن جنازة بهذه الغرائبية على الفيسبوك، وأظن أن الجميع سيتفهمون الوضع ويتغاضون عن مشاكل النص ويتسامحون مع تلعثمه. وبمجرد أن نشرت الدعوة على صفحتي، أغلقت الهاتف، فقد كنت منهكًا تمامًا، وخشيت من أن تبقيني التعليقات مستيقظًا طوال الليل.

وأغلقت عيني لكن عاندني النعاس، فقد كنت قلقًا مما ينتظرني في العمل في الصباح التالي. كانت تعود لي ومضات مفزعة مما حدث في القطار. وقرب الفجر، وفي المسافة بين النوم والصحو، رأيت فيما يشبه الرؤيا، نفسي واقفًا أمام شاهد الولد في الظهيرة، وألوف من الناس تتقاطر إلى المقبرة، عشرات الألوف من كل لون ولغة وعمر. يأتون ويبكون الولد بحرقة، ويذرفون

الدموع على وحدتهم وغربتهم معي ومن أجله. وسمعتهم يقولون هذه أكبر جنازة شهدتها المدينة، وسيتكلم عنها الناس كما لم يتكلموا عن جنازة من قبل. وهرول الغرباء من كل صوب ليدفنوا خوفهم معه ويتركوا ماضيهم بجانبه، ويواسوا بعضهم بعضًا. كان كل من عرفتهم هناك، رجل القطن كان يعزف على آلته ألحانًا حزينة ومبهجة في الوقت نفسه، ورأيت بيبسي لأول مرة دون طباشيرها الأبيض على الوجه، وكان كايودي مبتسمًا ملء فمه والدموع تنهمر من عينيه.

ورأيت السيدة (أ) حية، وتتكئ بيدها على كتف كتاجينا. وكان رجل الأحضان المجانية يوزعها على المعزين كعادته، لكن بصدق. ووقف جيمس المتسول، مهندمًا وبهيًّا، وهو ينظر إليَّ من بعيد ببعض الخجل. طلب السماح، وسامحته دون أن نتبادل كلمة واحدة. وكانت خالتي تسير يدًا بيد مع حبيبتها تاتشر، ويوزعون الآيس كريم على الأطفال من حولنا. ورأيت بوتيتسا قادمة من بعيد، انتظرتها، واحتضنتني كما في أيامنا الماضية، وهمست لي بحنان بأن الوقت قد جاء لكي ننسى. وقالت للجميع إن أخطر ما في هذا العالم هو الثلاجات وبرودتها التي من الممكن لها أن تحفظ أي شيء وكل شيء داخلها إلى الأبد.

الفصل الثامن

آمن القدماء بأن للمرء روحين، "الكا" و"البا". واحدة للأرض هي قرينة المرء، على صورته وتشبهه تمامًا. والأخرى للسماء ولها جناحان تحلق بهما بعيدًا وتعود. وآمنوا أيضًا أن الموت ليس فراق الروح للمادة، بل هجر الروح للروح. تفارق "البا" جسد صاحبها، حين يأتي الأجل، وتبقى "الكا" معه تحرسه. يهيم شبحها حوله، وتستأنس بأحبائه في أماكن الذكرى. تظهر لهم أحيانًا، وتستمع إليهم وتحدث قلوبهم دائمًا. لا يفارق الناس موتاهم، ولا يفارق الموتى ناسهم، فهم دائمًا معهم وفي جوارهم. وإنما مشقة الموت، كما مشقة العيش، هي في غربة المرء عن نفسه، واشتياق روحه لروحه الأخرى. وفي ذلك يتألم الناس لمعاناة الموتى، كما لمعاناة الأحياء. فالموت انتظار طويل أو خصام طويل كما الحياة. ولكليهما أنواع كثيرة. فهناك من يعيش عمره كله، بروح واحدة دون أخرى، أو يموت دونهما.

وهناك من تخاصمهم أرواحهم، أو تتخاصم فيها بينها في حياتهم، ولا تأتي سكينتهم سوى بالقبر. وبعض الناس تتغير طباعهم بعد الموت. كأن تكون الروح المجنحة خجولة وتأنس بالعزلة، بينها يحب قرينها الانطلاق وعشرة الناس، ويظل بين هذا وذاك، إلى أن يأتي الموت. وبعدها يضحى المرء أكثر قربًا من أحبائه ويغمرهم حينها بحضوره أكثر مما كان يفعل في حياته. وهناك من تذبل أرواحهم المجنحة مبكرًا، ويجرجرونها وراءهم لوقت طويل، ويموتون ميتات كثيرة، وبطيئة ومرهقة. وهناك قليلو الصبر قصيرو الاحتمال ممن فعلوها، في لحظتها، خفية، ودفعة واحدة. وكانت ميتة جدتي من النوع الطويل.

ذبلت روح بديعة السماوية، وتكسرت أجنحتها، قبل عقد من موتها على الأقل. وبقي لها قرين، يشبهها فقط، ولا يعرف عنها الكثير، ويتجول بيننا كشبح بلا ذاكرة. قالوا إن كل الجثث التي رأتها في شبابها، في المشارح، ومديريات الشرطة، هي ما لحس عقلها. وخمن الأطباء أنه الزهايمر، وقالت نساء العائلة من جيلها إنه طول الانتظار، أما كهنة الكنيسة فقالوا إن النسيان رحمة من الرب. وفي البداية ظنت كل أحفادها حفيدها البكر. الجميع كبيرهم وصغيرهم، نادتهم باسمه "نايل". وطاوعناها، أشفقنا عليها من الصدمة مرة أخرى. ولم نقل لها إنه ذهب إلى حفر الباطن ولم يجد أحد جثته. وعاد الأطباء وقالوا ستنسى الحاضر، وتعود لها ذاكرة الماضي البعيد، وقد كان. وظنت نساء العائلة من جيل أصغر أنها الحسرة وكل الرغبات التي كتمتها في قلبها. وخشي رجالنا من الفضيحة، كما يخشون من الأرامل في

شبابهن. فهي ظنت كل الرجال، الجد الذي خرج، ولم يعد. كانت تجرى إلى الغرباء في الشارع وتقبل أياديهم، وتناديهم باسمه. حبسوها في البيت، حتى لا تجلب العار. وجاء الأطباء وقالوا كلموها أكثر، وذكروها بالماضي وأحضروا أحباءها إليها لتفتكر المودة. وجاء ضيوف كثيرون، وقالوا لها أمورًا حدثت بالفعل، ولم تستجب. وحاولنا نحن الصغار أيضًا، جلسنا وحكينا لها كل القصص التي روتها لنا في الماضي عن أمنا الغولة والجنيات الطيبات. وكانت تبتسم، حين تسمعها، وأحيانًا تبكي لها. والكهنة هزوا رؤوسهم وقالوا صحيح ستتذكر الخيال، وتنسى الحقيقة، هذه عادة القلوب المعذبة.

وبعد شهور من حبستها الأولى، خرجت إلى الصالة، شقت جلبابها، وكشفت صدرها الضامر أمام الضيوف، ورقصت حولهم، وضحكت. وعاد الأطباء وقالوا إنه الخرف، وكتبوا لها دواء جديدًا، وكانت تنسى بالطبع أن تأخذه. فوضعوها في غرفتها، ووضعوا عليها قفلًا، وأغلقوه بالمفتاح. وكانت حبستها الثانية أقسى من الأولى، ونسيت نصف ما تعرفه من الكلمات فيها. كانت تمزق المخدات والمراتب بأظافرها، وتخرج ما في مصارينها، وترمي القطن من الشبابيك على المارة. واشتكى الناس من زخات الزغب في الشوارع، فمسمروا شبابيك غرفتها، ووضعوا لها مرتبة من الإسفنج.

مر الوقت، وعادت الأسرة وطلبت الأطباء، فقد حطمت سريرها وأخرجت أحشاءه، وكأنه قبر نبشته ومضغت الإسفنج. وهداهم تفكيرهم

أن يأخذوا السرير، ووضعوا بدلًا منه لوحًا من الخشب، تنام عليه. وفي الليلة الأولى، قرضت أطرافه كالفئران. وكان واضحًا أن الأمور تسوء. وحينها نصحت الكنيسة بأن يخلوا غرفتها من كل شيء. وعملت الأسرة بنصيحه الكهنة، ولم يمانع طبيبها. وتسحبنا نحن الصغار إلى غرفتها، حين كانوا يفتحون بابها مرة في اليوم. وكنا نجدها راقدة على البلاط، وجسدها متكور كالجنين، تكلمنا معها ولم تسمعنا، ولمسناها فلم تشعر بنا. وحكينا لها حكايات الخيال فلم تستجب. مع الوقت كان الجميع قد تعب، ونسينا وجودها في الغرفة ومعظم حكاياتها.

كان جسدها الضئيل ممددًا على كنبة الصالون، في نفس الوضع الذي كانت تفضله في ساعات القيلولة. وظل هناك أربعة أيام كاملة، حسب وصيتها. لم يفهم الجيران، وحذر الأطباء من أن الرائحة ستكون ثقيلة وضارة، وتعجب الكهنة، وقالوا إن الروح تغادر البيت بعد ثلاثة أيام، وهم جاءوا بالفعل وصرفوها، فلماذا الانتظار! وكانت خالاتي يحممنها مرة في اليوم، ويمسحن الرغاوى عن فمها، بمنديل، كل بضع ساعات. وجاءت هيلانة، البكرية، في يوم الخارجة، ونهرتهم:

"الناس يقولوا علينا إيه".

وكنت جالسًا، هناك على الأرض، بالقرب من الباب، ورأيتها وهي تفعل كل شيء. خلعت عن الجدة ملابسها السوداء، وألقتها بعيدًا على البلاط. وحملتها كالطفلة في حضنها، عارية، ووضعتها في الطشت الكبير.

وحممتها بالكولونيا، ودلكت جسدها برقة وكأنها عروس في ليلة دخلتها. وأخرجت ملابس بألوان الربيع، لم تلبس مثلها منذ أن ارتدت الأسود في سنين ترملها. ووضعت عليها كل مصاغها. ومشطت شعرها، بالمشط العاج، فردته على حجرها، ودعكته بالزيت، فضيًّا كضوء القمر، خشنًا مثل أيامها، وطويلًا ومجعدًا كطريق وعر. ووضعت الخالة لمساتها الأخيرة، الأحمر على شفتي الجدة، والبودرة على خديها. وأجلستها على الكرسي الكبير بجانب الشباك حيث اعتادت أن تجلس، وشغلت لها، إذاعة الأغاني التي كانت تحبها. وجاء الناس واحدًا واحدًا ليودعوها، وطبعوا على جبهتها اللامعة، قبلاتهم الأخيرة. وهي كأنها تبتسم لهم في رضا، مرتاحة وهادئة. وبعد أن انتهت الليلة، نظرت الخالات لبعضهن، وقالت هيلانة بفخر:

"كده الجنازات، ولا بلاش".

فهمت حينها، أن على الموتى أن يتحملوا الكثير في الجنازات، وأن الموت ليس نهاية لمهامهم في عالم الأحياء. وكان هذا، ما يدور في ذهني، حين فتحت عيني هذا الصباح. حاولت أن أصرف ذهني تمامًا عما ينتظرني في المكتب، وأن أنسى موضوع السيدة (أ) وكايودي. جنازة الولد والدفنة والمعزون، هي ما يجب أن يحظى بكل اهتمامي الآن. مددت ذراعي، وتحسست بأناملي سطح الطاولة الصغيرة بجانب السرير، كما أفعل كل صباح. ووجدت التليفون، ورفعته أمام وجهي، وتفحصت شاشته لبضع ثوانٍ عن قرب، وكانت خيبة الأمل. كان عدد التعليقات على منشور الجنازة على فيسبوك،

محدودًا، عشرين مثلًا، وكان كلها كلمات تعزية لا أكثر، ووعد اثنان بمحاولة الحضور إلى المقبرة في موعد الدفن، أو بعده بقليل. شارك ثلاثة أشخاص المنشور على صفحاتهم. وتفحصت صندوق رسائلي، وكان هناك رسالة من شخص لا أعرفه، يقول لي إنه تأثر جدًّا، ويود أن يأتي لكن الموعد في نصف اليوم وسألني إن كان هناك أي شيء آخر يمكنه القيام به. عشرون تعليقًا، و35 لايك، ورسالة واحدة، وثلاث مشاركات، هذا ما تبقى من حياة كاملة. وظننت هذا محبطًا قليلًا، لكنه أفضل من لا شيء بالتأكيد.

كان هذا يومًا مناسبًا لارتداء قميص مكوي أيضًا، وظننت أن الجنازة تستحق أن ألبس البدلة الكاملة، وأبهجتني الفكرة قليلًا. فما دام المرء يجد لنفسه مناسبات يرتدي فيها البدل ويكوي قمصانه ويلمع أحذيته، فإن حياته تستحق العيش، أو على الأقل لها معنى. وربما سيجد الناس في المكتب، مظهري غريبًا ومثيرًا للارتياب، لكن لا يهم فهناك احتمال ليس بالبعيد أن يكون هذا يومي الأخير في العمل، ومن الأفضل أن أودع المكان بمظهر براق. أن أغادر مع أكبر قدر من الكرامة الممكنة. كانت بدلة واحدة جلبتها معي من القاهرة حين وصلت هنا لأول مرة. فلم يكن الاختيار صعبًا. وضعت جاكيت البدلة، وكما توقعت، أصبح ضيقًا قليلًا، بعد عشر سنوات. كان الكتفان ضيقين، ولم تكن حركتي حرة بشكل كامل. قلت لنفسي، البدل لم تصنع من أجل الراحة، بأي حال. وبعد خمس دقائق كنت في الشارع، أردت أن أصل إلى العمل في الموعد، ولم أكن مرتاحًا لركوب المترو بعد ما حدث أمس. ولا يمكن توقع المدة التي سأحتاجها للوصول

إلى العمل بالباص. كان عليَّ أن أبدأ رحلتي مبكرًا.

رأيت الباص وهو يصل إلى المحطة، وكنت ما زلت على بُعد خطوات منه، ولم أجد داعيًا للعجلة. فبجانبه طابور ليس بالقصير من الركاب، في انتظار أن يفتح الباب. وسيستغرق صعودهم وقتًا كافيًا حتى ألحق بالباص. منحني المنظر ابتسامة صغيرة، فطوابير محطات الباص هي أكثر ما حيرني في هذا البلد. فلها طبيعة خاصة، فنصف الناس على الأقل لا يحترمونها، ويصعدون للباص دون انتظار دورهم. وهؤلاء لا يثيرون اهتمامي بالتأكيد، أظن سلوكهم مفهومًا إلى أقصى حد، وإن كنت لست بالضرورة معجبًا به. لكن ما يصيبني بالدهشة، في كل مرة، هو هؤلاء الذين يحافظون بإصرار على نصف الطابور، أو ما تبقى منه. الطابور لا يصبح طابورًا إلا حين يحترمه الجميع أو معظم الناس على الأقل. وأنا لا أفهم إن كان الأمر إيمانًا بالنظام في المطلق وليس بالضرورة ناتجًا عنه. أو أنهم يعتبرونها مسألة مبدأ تتطلب التضحية. وأحيانًا تصورت أن الأمر لا يتجاوز حكم العادة. ومرة التفتت إليَّ امرأة مسنة، كانت تقف أمامي في واحد من تلك الطوابير غير المقنعة. وقالت لي بدون أي مناسبة، ما معناه أن مشكلة الحياة ليست في أنها قصيرة كما يظن الشباب عديمو الخبرة، بل العكس تمامًا، فهي طويلة أكثر من اللازم. ولا يدرك ذلك سوى شخص في سنها. ولذا فهي تحب الطوابير، وتفضل الطويل منها على القصير. ولم أكن واثقًا من معنى ما قالته تحديدًا. ولم أجد إجابة شافية لمسألة الطوابير النصف نصف، وإن كنت متأكدًا أنني أصبحت أقف فيها من باب الحرج

لا أكثر، وفي أحيان نادرة كنت أجد لذة خفية في الانتظار، أعني الفكرة نفسها، فكل انتظار كان يعطيني أملًا في شيء ما، مهما كانت تفاهته.

صعدت إلى الدور العلوي من الباص، وكنت محظوظًا، فوجدت كرسيًا فارغًا في المقدمة وفي الجانب المشمس أيضًا.

كانت سيولة المرور معقولة، بالنسبة لهذا الوقت من ساعة الذروة. تحرك الباص بتمهل، دون أن تعطله أي اختناقات، وكانت هذه فرصة لأتأمل الشوارع من أعلى، وتصورتها وكأنها خشبة للمسرح تنظر إليها من البلكون. ولم يكن هناك الكثير من الأحداث التي تجري ولا كثير من الديكور. الأولاد في طريقهم للمدارس، بأزيائهم الموحدة وفوضاهم المتناغمة، والبالغون في طريقهم للعمل. تكرار صارم، ويشي بكثير من الصلابة والالتزام. وأدركت أن أحدًا منهم لا يعرف أن شابًا مسكينًا اسمه غياث مات وسيدفن اليوم. تطلعت إلى خارج النافذة، وكانت للحملقة في البيوت الفيكتورية المكررة، في مربع سكني، واحدًا بعد آخر، بطول الطريق تأثير مريح، وباعث على الطمأنينة كالعادة. وكان المشهد أقرب في الحقيقة إلى النظر في صندوق الدنيا، منه إلى المسرح.

توقف الباص ونزل عدد كبير من طلبة المدارس في محطتهم. وكانت هذه أول مرة ألاحظ أن هناك نُزلًا للمشردين قريب من المدرسة الإعدادية. ولم يكن هناك يافطة أو إشارة على المبنى تدل على طبيعته، لكنني تعرفت عليه بالحدس، وقليل من التخمين. ولا أعرف كيف أشرح ذلك، فهناك معارف يتشربها المرء بالخبرة، دون أن يدري. إلا أنني لمحت شخصين

يخرجان من البوابة الرئيسية للمبنى، وأكدت هيئتهما لي صحة افتراضي. تحرك الباص بنا في شوارع مألوفة، ولم أكن قادرًا على تحديد أسمائها بدقة، ولا خط سير الباص بالنسبة لها. إلا أن ومضات من القصص كانت تظهر أمام عيني كل بضعة أمتار. في عشرة أعوام، هنا، كنت قد دخلت كل نزل للمشردين، ومئات من زنازين السكن الاجتماعي المؤقت الموزعة في كل ركن في الحي، وتعرفت إلى المئات من سكانها، وسمعت قصصهم. وعرفت عن ماضيهم، أقل مما أرادوا أن يعرف العالم عنهم وأكثر مما أحتمل.

كان الباص يتحرك ببطء، وكانت عيناي تخترقان الجدران وتريان ما وراءها، المخفي عن بقية الركاب الآخرين. ولم أدرِ إن كانت معرفتي بكل هذا من حسن الحظ أم سوئه. ونظرت إلى الجانب الآخر من الباص، ورأيت شابة تبتسم لنفسها وهي تستمع إلى الموسيقى، وفهمت أنها لا تعرف، وحسدتها. نزلت من الباص، وكان النزل الذي سكنت فيه السيدة (أ) على الجهة الأخرى من الطريق. رأيت رجلي شرطة يرفعان الشرائط البلاستيكية الصفراء، التي تحيط بالمبنى، وفهمت أن المعاينة الجنائية قد انتهت. كان كل شيء يبدو عاديًّا من الخارج، وكأي يوم آخر.

"جاري في انتظارك، وطلب أن تتوجه إلى غرفة الاجتماع بمجرد وصولك".

بدأت دقات قلبي في التسارع، حين أصبحت قريبًا من المكتب. وبمجرد أن دخلت من الباب، لم تمهلني موظفة الاستقبال فرصة لالتقاط أنفاسي، وبلغتني التعليمات بصوت حاد ورسمي. وفهمت أنها تعرف كل شيء،

وربما الجميع، فليس هذا شيئًا يمكن إخفاؤه. وأشعرني هذا ببعض الراحة، فالموضوع سيحسم حالًا، وسأعرف مصيري. لا داعي لأي انتظار أو مزيد من الحيرة. رمقتني الموظفة بنظرة اندهاش.

"تلبس بدلة اليوم، ماذا حدث؟ هل ربحت اللوتري، أم وجدت وظيفة حقيقية؟"

لم تفارق التقطيبة جبينها، وألقت مزحتها، بنفس الصوت الرسمي، الذي يتصنعه الناس هنا لإخفاء القسوة.

"لا، لدي جنازة اليوم".

ضحكت، ولم يكن واضحًا إن كانت تظنني أمزح، وأعجبتها النكتة أم أنها وجدت ما قلته مضحكًا. ابتسمت وتخطيتها، في طريقي إلى داخل المكتب. وسمعت صوتها يأتي من الخلف، بخليط من التنمر والشفقة:

"حظًا سعيدًا إذًا"

وظننت أنني أحتاج للكثير منه بالفعل. لكن حين وصلت إلى غرفة الاجتماعات، فهمت أن الوقت قد تأخر جدًا، وما يمكن أن يفعله الحظ الآن ليس كثيرًا. كان باستطاعتي أن أرى عبر الباب الزجاجي، جاري جالسًا في الداخل، بوجه متجهم وأمامه كوب من الشاي وملف أزرق وبعض أوراق متناثرة على الطاولة أمامه.

"تفضل، آسف على إحضارك إلى هنا في هذا الوقت المبكر، ربما تحتاج إلى كوب من الشاي أو القهوة أولا".

التزم جاري بتقاليد العمل الإنجليزية، فكل شيء يجب أن يبدأ باعتذار وينتهي باعتذار وكلما زادت الاعتذارات، كان هذا دليلًا على فداحة الموقف. هززت رأسي بالنفي، وطلبت منه أن يدخل في الموضوع بإيماءة عينين متسعتين توحي بالانتباه.

"حسنًا، أنا لا أتصور أنك تعرف سبب استدعائي لك".

انفلتت مني نصف ضحكة بالفعل، وبالكاد استطعت كتمان نصفها الآخر. كان هذا إنجليزيًا أكثر من اللازم. تلك الجمل التي تنفي شيئًا، لكنها تقصد إثباته. خمنت أنه يقصد العكس تمامًا. في البداية، وفي الشهور الأولى لي هنا، لم أفهم منطق هذه الجمل مقلوبة المعنى، أو مزدوجة المعنى لأكون أكثر دقة. واحتاج الأمر بضعة شهور، حتى أصبحت قادرًا على تخمين معانيها، وعلى التفريق بين العبارات التي تعني معناها، والعبارات التي لا تعني معناها. ومع الوقت، أصبحت أفعل ذلك بمجهود أقل، وأتحدث بنفس الطريقة بعض الأحيان، وبكثير من الأريحية. فالناس هنا تفضل الجمل المعكوسة وترى في المعنى المباشر والعاري هكذا بلا حياء بعضًا من إساءة الأدب وتبجحًا لا يليق إلا بين الأصدقاء المقربين. هززت رأسي مرة أخرى مؤكدًا ما قاله، وقمت بدوري المفترض في تلك اللعبة. والحقيقة أن الأمر لا يخلو من متعة. فهناك شيء شاعري بالتأكيد في تلك الجمل التي تقف على حافة المعنى، وتتلاعب على جانبيه. الكثير من الإثارة في متاهة التخمين، وقدر معتبر من التواضع أمام مخاطرة افتراض الفهم التي لا تصل أبدًا إلى اليقين.

"بصفتي مديرك المباشر، أفضل أن أكون أول من يخبرك بالأمر. لقد قمت بزيارة منزلية، قبل إجازتك المرضية، لامرأه تُدعى السيدة (أ) في نزل السكن المؤقت. ويؤسفني أن أبلغك بكل الأسى بأنها لاقت حتفها في ملابسات مأساوية جدًا. وحدث ذلك بعد أقل من ساعة لمغادرتك للمكان".

لم يكن واضحًا لي إن كان يجب أن أتظاهر بالصدمة أو الحزن، فتلك واحدة من تلك الثنائيات التي لم أعد قادرًا عن الفصل بين أقطابها. ولكن في كل الأحوال، أظن أن جاري لن يكون راضيًا عن أي تعبير مبالغ فيه عن المشاعر في مكان العمل. فتظاهرت بأنني أحاول استيعاب ما قاله، بوجه تبدو عليه الحيرة. ولم أنطق بكلمة واحدة، فالأمر سيء بالفعل، ولا أريد أن أزيده سوءًا.

"وكما تعرف فإن الشرطة فتحت تحقيقًا في الأمر".

غير جاري من إستراتيجيته. فهو يؤكد الآن أنني أعرف. وهذا كان تحولًا مفاجئًا، وربما يعني أنه يعد لي فخًا. كان يجب أن أستخدم واحدة من تلك الألاعيب التي تقول شيئًا ولا تعني شيئًا في النهاية.

"بالطبع، الشرطة تفتح تحقيقًا في مثل تلك الحالات".

اعتدل جاري في جلسته فجأة، وبدا عليه الضيق. وتحول صوته من اللين إلى نبرة مملؤة بالتنمر.

"أي حالات؟"

كنت جاهزًا بالإجابة، لكن التحول المفاجئ في تعابير وجهه، أصابني بلحظة من التردد.

"أعني أن يلقى المرء حتفه في ملابسات مأساوية جدًا، أنت قلت هذا، صحيح؟"

حرصت على أن تكون عباراتي مجرد إعادة صياغة لما قاله، فهو ينتظر خطأ واحدًا مني لينقض.

"اسمع، لا داعي لكل هذا، ما سأقوله الآن سيكون بصفة شخصية. أنت تعرف أنك أخطأت، وخطأ فادحًا أيضًا".

كان صوت جاري غاضبًا، يضغط على مخارج الألفاظ بقوة تكشف لهجته الإسكتلندية الخشنة. وتخلى عن اللكنة الإنجليزية المصطنعة التي يستخدمها حين يتظاهر بالجدية. وأراحني ذلك بعض الشيء، فلا حاجة للمزيد من الألاعيب الآن، الكل كشف أوراقه. اكتفيت بهز رأسي هزة خفيفة، لا يمكن تفسيرها على نحو واضح.

"لماذا أخبرت المرأة المسكينة بأنه لا أمل لها في الانتقال لسكن دائم؟"

أردت أن أعترض، وأوضح له أنني لم أقل شيئًا، وأنه كايودي من فعل هذا. لكنه لم يعطني فرصة.

"ليس هناك ما هو أفضل من الصراحة. هذا هو شعارنا، هنا في هذا المكتب. وأنت تعرف ذلك جيدًا. أنت وأنا موظفان لدى الحكومة المحلية، ومهمتنا هي الصراحة مع الجمهور. أنت تفهم بوضوح أن الصراحة

تقتضي ألا نخبر النزلاء بأية حقائق. الصراحة تقتضي الصمت. ببساطة لأنه لا يمكننا أن نكون متأكدين من أي شيء. كل عام ترفع الحكومة سن المعاش. هل تعرف في أي سن ستحال إلى المعاش؟ لا تعرف بالطبع، ولا أعرف أنا، ولا أحد يعرف. وكل بضعة أشهر يأتي قرار من أعلى بخفض الرواتب، أو قص قيمة الإعانة الاجتماعية، أو تغيير اشتراطات التقدم لها. والأسبوع القادم ربما يغيروا شروط الاستحقاق للسكن الاجتماعي. عملنا لا يتطلب حقائق، عملنا ببساطة هو الالتزام بالإجراءات... والإجراءات هي الحقيقة الوحيدة التي نتقنها".

توقف جاري عن الكلام للحظة ليأخذ رشفة من الشاي، وكانت هذه فرصتي للدفاع عن نفسي.

"لكنني لم أقل شيئًا!"

تظاهر بأنه لم يسمعني، واستكمل كلامه بصوت أقل حدة، ولكن بمزيد من دلالات الغضب على ملامح وجهه.

"تعرف ماذا يطلق علينا النزلاء؟... رجال الاستمارات الصفراء. وتعرف لماذا؟ لأن وظيفتنا أن نملأ الاستمارات فقط. نحن لا نأخذ قرارات، ولا نبلغ أحدًا بقرارات. أنت الرجل الاستمارة... رجل الاستمارة الصفراء لا أكثر ولا أقل. أول أمس، جاء نزيل لنا في المكتب هنا، وكان معه نتيجة تحليل الدم، مقياس عدد كرات الدم البيضاء انخفضت لأقل من 500. وأخبروه في المستشفى أن هذا معناه أن فيروس "إتش آي في"، خرج من مرحلة الكمون، وتحول إلى إيدز. وكان سعيدًا جدًّا، مرضه

أخذ الختم الرسمي أخيرًا. ويعنى هذا أنه سيحصل على أولوية في طابور الانتظار للسكن الاجتماعي، وربما ينتقل إلى سكن دائم قريبًا. وكان من الممكن أن أهنئه وأقول له: مبروك عندك إيدز، ألف مبروك. ولكنني لم أفعل ذلك، لأن مهمتي هي الصراحة. أخرجت استمارة إعادة تقييم الوضع الصحي، وقلت له ينبغي عليه أن يملأها، ويرفق بها نسخة أصلية من تحليل الدم. وتعرف لماذا فعلت هذا؟ ببساطة لأن الأمراض هي مجرد أرقام حكومية، ومن الممكن، في الغد، أن يخفضوا الحد الأدنى للإيدز إلى 400، أو 300، أو أي رقم آخر. جميعها أرقام، وكلها يمكن أن تتغير، في أي وقت، وبمنتهى السهولة. شيء واحد هو الثابت هنا، أنه لا يمكننا أن نكون متيقنين من أي شيء".

كنت قد اكتفيت من التوبيخ، فالمرأة انتحرت بالفعل، وليس في يدي شيء لنفعله الآن، قاطعته هذه المرة بصوت أعلى.

"قلت لك... لم أقل شيئًا يا جاري".

نظر لي بعينين تتقدان بالحنق، وفتح الملف الأزرق، وقلب فيه بسرعة وأخرج ورقة منه، ولوح بها أمامي. كان من الواضح أنه أعد نفسه لتلك اللحظة طويلًا، وكان أكثر من مستعد.

"لا، أنت قلت. هذا تقرير من المترجم، الذي تولى ترجمة شهادة ابن السيدة (أ) في تحقيق الشرطة. انظر بنفسك".

وضع جاري الورقة أمامي، وأشار بأصبعه إلى بداية الفقرة الثانية.

ولم أصدق ما قرأته، كان غريبًا جدًّا وغير منطقي.

"اتصلت بي والدتي، حوالي الساعة الثانية عشرة ونصف. وكان هذا اتصالًا غير متوقع. فهي توقفت عن التواصل معنا منذ خرجت من المشفى العقلي. كان صوتها هادئًا وسعيدًا على غير العادة. قالت لي إن شخصين من رجال الاستهارات قاما بزيارتها، وسألوها أسئلة مضحكة، وعرضوا عليها صورًا مضحكة أيضًا. كان أحد الرجلين يتحدث العربية. وأنا لم أفهم منها بالتحديد الغرض من الزيارة. لكنها قالت لي بأن الزائرين تحدثا معها بصدق. كانت هذه أول مرة أي شخص يتكلم معها بمثل هذا الصراحة. قالا لها: لا أمل في أن تحصل على شقة، ولا داعي للانتظار أكثر من هذا. ولقد قررت هي أن الوقت قد جاء لتتصالح معي، ولتعود للعيش معي مرة أخرى. فالانتظار كان قاسيًا، والأمل المعلق كان كأن روحها عالقة في البرزخ (تعليق من المترجم: البرزخ هو مكان بين الحياة والموت، مثل المطهر في الكاثوليكية). وبفضل لقائها مع هذين الرجلين، قالت إنها قد عادت للحياة بمجرد أن فقدت الأمل. كنت ممتنًا لما سمعته، واتفقنا على أن أمر عليها بعد العمل، ونتكلم. لكن حدث ما حدث".

قرأت الفقرة مرة أخرى، وكان هذا كل شيء، ونظرت إلى جاري، منتظرًا أن يقول شيئًا، وظل صامتًا.

"هل هذا كل شيء؟ لماذا انتحرت إذًا؟"

اعتدل جاري في جلسته، ووضع القلم الذي كان ممسكًا به طوال اللقاء

جانبًا، وحملق في وجهي باندهاش صادق إلى أقصى حد.

"من الذي انتحر؟"

كان كايودي مخطئًا. وكل تخوفاتنا بخصوص السيدة (أ) كانت بلا أساس، مجرد أوهام في رؤوسنا. أخبرني جاري بأن غرفة التدفئة المركزية انفجرت، وشب حريق محدود، طال غرفة المرأة، وكانت هي الوحيدة التي توفيت، ربما بسبب اعتلال صحتها بالأساس. وأصيب بعض النزلاء بحروق خفيفة أو متوسطة. غمرني خليط من المشاعر المتضاربة كالعادة، وعجزت عن الفصل بينها، أو تحديد أيًا منها على حدة. لم يعد هناك ما أخشاه بخصوص وظيفتي. وكان هذا يستحق الابتهاج أو على الأقل شعورًا بالراحة. ماتت السيدة فعلًا، وهذا حزين، لكن الأمر أصبح مشكلة شخص آخر. تم إيقاف موظف الاستقبال في النزل عن العمل وهناك تحقيق موسع مع متعهد الصيانة أيضًا. انفجرت الغرفة بعد أقل من ساعة من مغادرتنا، ولم أعرف إن كان يجب أن أبتهج لأنني نجوت هذه المرة أيضًا، أم يصيبني هذا بالرعب. أفلت بمحض الصدفة، ما زلت حيًا من باب العشوائية لا أكثر وبضربة حظ أخرجتني من حبائل نظرية الاحتمالات. وللحظة ظننت أن مشكلتي الطويلة مع تمييز المشاعر، ليست بسبب خلل أصابني. بل ربما هي رد فعل طبيعي للطريقة التي يسير بها العالم. فكيف يمكن للمرء أن يشعر في مواجهة النجاة؟ النجاة التي تعني مأساة الآخرين، أو المأساة المحتملة دائمًا والممكنة لولا القليل من حسن الحظ.

"هل تعرف ما الذي أصاب كايودي؟ هل فقد عقله أم ماذا؟ هاتفتني

مديرته هذا الصباح، هو مُصِر على إنكار أنه قابل السيدة (أ). أعتقد أنه في ورطة كبيرة. كاميرات المراقبة في المبنى سجلت دخوله معك في تمام الحادية عشرة، وخروجه أيضًا بعد ساعة. يبدو أنه لا يفهم أن الكذب لم يعد ممكنًا هذه الأيام، طالما لا يوجد من يريد تصديقه. نصيحتي أن تبعد نفسك عنه".

هززت رأسي، بالموافقة، وتظاهرت بأنني لا أعرف شيئًا عن الأمر. وسألني هو بعد ذلك في اندهاش عن سر ارتدائي البدلة، فقلت له إنني أحتاج للاستئذان من العمل بعد ساعة لحضور جنازة. وأبدى جاري لطفًا فوق المعتاد، وأخبرني أنه لا حاجة لي للبقاء في المكتب لمزيد من الوقت، وأنه يمكنني الانصراف في الحال:

"فالنجاة المفاجئة تتطلب بعض الوقت لاستيعاب صدمتها"، كما قال وعلى وجهه الكثير من مشاعر التعاطف.

وانطلقت حينها إلى مقبرة "رأس الراهبة" مبكرًا جدًّا. وكان هذا جيدًا في الحقيقة، فأنا لم أذهب إلى هناك من قبل، وهي واحدة من المقابر السبع الكبرى في لندن. كنت قلقًا، ألا أجد القسم الإسلامي فيها بسهولة. كانت شكوكي في محلها، فالوصول إلى المقبرة نفسها كان سهلًا. خفت رهبتي من قطار الأنفاق منذ الصباح ولم تستهلك الرحلة فيه طويلًا. سليت نفسي بقراءة جريدة "المترو" المجانية. ولم أشعر بالوقت. فقد شغلني واحد من الأخبار الخفيفة، عن أسرة ألمانية رفعت قضية على شركة "فيسبوك" بعد وفاة ابنتهم. فلقد أرادوا أن تزودهم الشركة بكلمة السر لحسابها. كنت

متحيرًا فعلًا، فحجة الأسرة كانت قوية، فهم الورثة القانونيون لما تملكه. أما الشركة فدفعت بأن الذكرى كالتاريخ لا تورث ولا تنتقل ملكيتها بالموت، ويجب أن تظل مشاعًا للجميع. كان هذا أكثر إقناعًا، وظننت ساعتها أن الشركات الأمريكية الكبرى يمكن أن تكون رومانسية أيضًا، مثل أي شركة أخرى. واستغرقت في أفكاري تلك، وكدت أن أنسى النزول في محطتي. لولا أن تنويه الإذاعة الداخلية عن التسول، انطلق قبل وصولي لمحطة "لندن بريدج" بثوانٍ قليلة، وأفاقني. وكان مفترضًا بي أن أبدل اتجاهي من هناك إلى محطة السكك الحديدية. وحين وصلت، كان المكان مملوءًا برجال الشرطة المسلحين بالمدافع الرشاشة. وأصابني مشهدهم، وهم يتجولون ويتفحصون الركاب ببعض الرهبة. وسمعت أن الشرطة قد تلقت بلاغًا كاذبًا عن وجود قنبلة في المحطة، لكن لم يجدوا شيئًا. انطلقت إلى رصيف المحطة بابتسامه واسعة، مختلطة بالخوف. فيبدو أنني نجوت مرة أخرى اليوم. وأقلقني هذا، فأنا لا أعرف كم فرصة متاحة لي من ضربات الحظ السعيد في اليوم الواحد. وأخشى أن أكون قد استهلكتهم جميعا بالفعل.

"أهلا وسهلًا، اسمي طارق، أنت هنا من أجل جنازة غياث، صح؟"

وصلت متأخرًا حوالي خمس دقائق. تهت في المقبرة الفسيحة، ودرت حول نفسي عدة مرات، فلم أكن أتخيل أن يكون المدفن الإسلامي، خلف كنيسة المقبرة، وليس أي مكان آخر. ومررت بالمكان أكثر من مرة، ولم أنتبه

إلى أن الشواهد هنا تحديدًا تواجه الشرق دون غيرها. وربما كانت ستفوتني مرة أخرى، لولا أن الرجل القصير، ذا الكرش الصغير وذا الشارب الكث استوقفني بصوته الطفولي، ووفر عليَّ مشقة دورة إضافية حول نفسي. ناولني الرجل باقة كبيرة من الزهور الصفراء اللون، وأخبرني أنها من أجل الفقيد. كان يتحدث بالإنجليزية، لكنني خمنت من لكنته الثقيلة أن العربية هي لغته الأم، وسألته إن كان يتحدثها. وتجاهل سؤالي، وكأنه لم يسمعه.

"عرفت عن الجنازة من صديق. أخبرني أنه قرأ منشورك على فيسبوك. يبدو أن هذه المرة الأولى لك، صح؟"

لم أفهم ما يعنيه الرجل الستيني، ولسبب ما استفزني لون شعره المصبوغ، والذي كان ميالًا للزرقة في ضوء الشمس. وسألته بنبرة استنكار.

"مرتي الأولى في ماذا؟"

ابتسم الرجل، وتقدم خطوتين تجاهي، ووضع يده على كتفي.

"أنا أحضر جنازات لأشخاص لا أعرفهم، منذ سنين طويلة. ويكون معظمهم بلا معارف ليقوموا بدفنهم. وأعتقد أنك لم تفعل هذا من قبل، أستطيع أن أقول ذلك بحكم الخبرة. قبل عشرة أعوام، شاهدت وثائقي على القناة الرابعة، عن مجموعة من السيدات تبرعن بإقامة جنازات لرفات الجنود الأمريكيين العائدين من العراق، هؤلاء الذين لا أهل لهم. وأنا من العراق، وظننت أنه من الأولى بي أن أفعل شيئًا مماثلًا. واكتشفت أن المئات يموتون وحدهم هنا، ولا أحد يحضر جنازاتهم، أكثر من أي مكان آخر.

وبدأت بالعراقيين أولًا، ثم امتد نشاطي لاحقًا لكل الجنسيات العربية الأخرى. لذلك أنا مشغول جدًّا، والأمر يأخذ معظم وقتي منذ أن خرجت على المعاش. تعرف... كل واحد فينا يجب أن يفعل ما يقدر عليه لنصنع عالمًا أفضل، وأنا أقول لك بكل ثقة أنه لا مكان للرحمة في عالم لا ينال الموتى فيه احترامًا كافيًا، ويصرفون منه بشكل لائق. وأنا نذرت الباقي من عمري لهذه المهمة المقدسة".

قضى الرجل أكثر من ساعة يحكي بلمعة هوس في عينيه عن مغامراته الكثيرة في سبيل مهمته. وكان يتخلل ذلك بعض ذكرياته عن العراق. لقد كان مهندسًا في الجيش، إلى أن حدثت حرب الخليج الأولى، وبعدها فر من البلاد. كان يقول أشياء تستحق الإعجاب، بالرغم من جنونه البين:

"على بوابة القبر، أنا أحارب الوحدة في ساحة معركتها الأخيرة، وأنتزع ضحاياها من براثنها".

وكان بعض ما يقوله هذيانًا صرفًا، لكنه وبلا شك كان مسليًا إلى حد كبير، ولم أتمالك نفسي من الضحك، أكثر من مرة. فهو قد ذكر عرضًا أنه كان شيوعيًّا، وفسر هذا بعضًا من عباراته الرنانة:

"سلاح الرأسمالية الوحدة، وبهزيمتها تنتصر الاشتراكية"

وبدا أنه كان مقتنعًا تمامًا أن ما يفعله مهمًّا جدًّا في تعبيد الطريق إلى غد الاشتراكية المشرق. وشعرت بكثير من الشفقة تجاهه، وبكثير من الإعجاب تجاه إخلاصه الفريد هذا. كان قد مر وقت طويل وحكى هو كثيرًا. لم يصل أي مشيعين آخرين، ولم تصل الجثة أيضًا. حاولت

الاتصال برجل القطن أكثر من مرة لأتأكد إن كان هناك أي تغيير في الخطة. كان الهاتف يرن طويلًا، قبل أن يقطع الخط. ولم يكن رفيقي قلقًا على الإطلاق، وطمأنني أن إجراءات الدفن من الممكن أن تتأخر بضع ساعات، فلا داعي للقلق.

"تعرف، بالأمس أنا كنت في جنازة شاب سوري آخر. وكان هناك مشيع واحد غيري، وانتظرنا ساعتين. كان الرجل الآخر غريبًا جدًّا، يقول أشياء مضحكة. فهو صحفي من سوريا أيضًا، وجاء باحثًا عن قصة يكتبها عن الميت. وكان محبطًا جدًّا، فلم يجد غير قصتي. كان ينفث إحباطه مع دخان السجائر الكثيرة التي أحرقها، وهو يقول أشياء يصعب تصديقها: "كم أتمنى لو كنت مثل ماركيز!". كان يعني الكاتب الكولومبي أو الأرجنتيني هذا. وأنا قلت له، إنه ربما طموح أكثر من اللازم. ورد بكلام أعجب، فهو يظن أن موهبته في الكتابة أعظم منه. لكن العائق الوحيد أنه ليس في سفالة ماركيز، هل تصدق هذا؟"

كان الوقت قد تأخر فعلًا، كانت حوالي الثالثة والنصف، حين بدأت السحب في التجمع فوقنا، وحجبت الشمس. بدأت أشعر بالقلق. وكانت الحكاية التي يسردها مضحكة، إلا أنني بدأت أشعر بالجوع، وبرَّد الجو قليلًا وظهر أنها ستمطر.

"قال لي إن ماركيز داعر، يكتب عن المعاناة والديكتاتورية ويسترزق منها، هكذا بكل بجاحة. وتمنى لو يكون بمثل هذه البلادة، ولا يشعر

بتأنيب الضمير. فكلما زاد عدد القتلى في سوريا، كان هذا يعني مزيدًا من الخبطات الصحفية له ودخلًا أفضل، وكان هذا يعذبه بشدة".

رن هاتفي، وقفزت إليه. ظننت أنه رجل القطن. لكنه كان كايودي. حاول الاتصال أكثر من مرة. ولم أكن في مزاج رائق لأرد حينها. استمر رفيقي في استكمال أحاديثه، التي كانت تقفز من موضوع إلى آخر بمنتهى الخفة. كان واضحًا أنه لا يجد من يستمع إليه.

"تعرف، كنت شيوعيًا عندما كنت في العراق، فقط لأنني كنت أريد أن أتمرد على أهلي. ومنذ أن انتقلت إلى هنا، أصبحت مسلمًا جدًّا، ولا أترك صلاة لنفس السبب بالضبط، فقط من باب العند. وهذه عادة الشيوعيين العراقيين، لو زرت مقبرة ماركس هنا في لندن، ستجد قيادات الحزب الشيوعي مدفونين بجواره، وعلى شواهدهم آيات قرآنية".

بدأ مطر خفيف في الهطول، وكانت الساعة قد تخطت الخامسة. وحاولت لآخر مرة أن أتصل برجل القطن بلا جدوى. وكنت جوعانَ ومرهقًا.

"ترى نحن العراقيين، من جلب الإسلام إلى مقبرة ماركس".

كان يضحك بشدة على نكتته، وضحكت معه، اشتد المطر قليلًا. وكان الوقت قد تأخر فقررنا المغادرة.

على خط جرينتش

وسمعتهم يقولون هذه أكبر جنازة شهدتها المدينة، وسيتكلم عنها الناس كما لم يتكلموا عن جنازة من قبل. وهرول الغرباء من كل صوب ليدفنوا خوفهم معه ويتركوا ماضيهم بجانبه، ويواسوا بعضهم بعضًا. كان كل من عرفتهم هناك، رجل القطن كان يعزف على آلته ألحانًا حزينة ومبهجة في الوقت نفسه، ورأيت بيبسي لأول مرة دون طباشيرها الأبيض على الوجه، وكان كايودي مبتسمًا ملء فمه والدموع تنهمر من عينيه.

ورأيت السيدة (أ) حية، وتتكئ بيدها على كتف كتاجينا. وكان رجل الأحضان المجانية يوزعها على المعزين كعادته، لكن بصدق. ووقف جيمس المتسول، مهندمًا وبهيًا، وهو ينظر إليّ من بعيد ببعض الخجل. طلب السماح، وسامحته دون أن نتبادل كلمة واحدة. وكانت خالتي تسير يدًا بيد مع حبيبتها تاتشر، ويوزعون الآيس كريم على الأطفال من حولنا. ورأيت بوتيتسا قادمة من بعيد، انتظرتها، واحتضنتني كما في أيامنا الماضية، وهمست لي بحنان بأن الوقت قد جاء لكي ننسى. وقالت للجميع إن أخطر ما في هذا العالم هو الثلاجات وبرودتها التي من الممكن لها أن تحفظ أي شيء وكل شيء داخلها إلى الأبد.

دار العين للنشر